ملاذ

مدينة البعث

أحمد صلاح المهدي

دار الكنزي للنشر والتوزيع

obeikan.com

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

المدير العام
محمد صلاح

إشراف عام
إيناس الدسوقي

الطبعة الأولى
الكتاب : ملاذ
تأليف : أحمد صلاح المهدي
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : إسلام مجاهد
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ؟؟؟؟ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي : ? - ?? - 6599 - 977 - 978

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01003897918
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى روح جدي محمود المهدي رحمه الله

obeikan.com

obeikan.com

الذئب الوحيد

ذات صباح ضبابي بارد، توارت الشمسُ وراء السحبِ الكثيفةِ، مرسلة ظلالًا كئيبة داكنة على مدينةِ ملاذ، كُبرى مدنِ الشمالِ، ومقر الصيادين، وفجأة ارتفع صوتُ صرير مرتفع يشق سكون الصباح، وأبواب المدينة العملاقة تُفتح باستخدام المتاريس الحديدية الضخمة، وقد انتفضت العروق في أيدي الصيادين الذين قاموا بفتحها، فيما وقف مجموعة أخرى من الصيادين على أسوارِ المدينةِ وأبراجها المرتفعة، يراقبون المنطقة المحيطة بالبوابة بأعينٍ حذرة، ثم أطلق أحدهم نفيرًا مرتفعا مستخدمًا بوقًا نحاسيًا إيذانًا بخروج قاطني ملاذ الذي يعملون في المزارع والمناجم خارج المدينة.

تجمهر الجَمْعُ أمام البوابةِ يحيط بهم مجموعةٌ من الصيادين على أحصنتهم وقد علقوا أقواسًا وسهامًا على ظهورهم، وسار الموكب عابرًا البوابَة تاركين وراءهم الملاذ الآمن لمواجهة الطبيعة القاسية، وأخطارها التي لا تنتهي. بعد أن مضى الجَمْعُ واختفى عن النظرِ سار شابًا صغيرًا في الثامنة عشر من عمره، حاد القسماتِ أسود العينين أقنى الأنفِ ذو شعرٍ أسودٍ طويلٍ يتناثر حول وجهه، يحمل على ظهره حقيبة قماشية، ويعلق خنجرًا بجانبه، فقال واحد من الصيادين:

– هل ستخرجُ وَحْدَك يا قاسم؟

فقال الآخر ساخرًا:

– دَعْكَ من هذا النباش!

تجاهل قاسم هذا التعليق الساخر، فالنباشون هو لقب يطلق على هؤلاء الذين ينقبون عن بقايا الحضارة القديمة، التي لم يَعُد مُتبقيًا منها إلا آثارٍ قليلة متناثرة، يحيط بها الأطلالُ المتهدمة والوحوش البرية الخطيرة، فقال الصياد الأول مجددًا وهو يشير ناحية الأطلال الخربة في الأفق:

– لن تنجو وَحْدَك هناك بدون حماية، يمكنني حمايتك مقابل حصة مما ستحصل عليه، ما رأيك؟

أمسك قاسم بمقبض الخنجر المعلق بجانبه بلا مبالاة وهو يقول:

– أستطيع الاعتناءُ بنفسي.

ثم أضاف وهو يبتعد عن بوابة ملاذ:

– كما أُفَضِل الاحتفاظ بغنيمتي لنفسي بدون أن أتقاسمها مع أحد.

يشتهر قاسم بين قاطني ملاذ بانطوائه وانفراده بنفسه وتفضيله العمل وَحْدُه، مما جعلهم يطلقون عليه ـ ساخرين ـ لقبَ الذئب الوحيد، كما أنه يشعر بكراهية تجاه الصيادين الذين يستأثرون بكل شيء لأنفسهم ولا يُلقون للناسِ إلا بالفتات، كما يفرضون عليهم الإتاوات بدعوى حمايتهم ويستغلونهم في الأعمالِ الشاقة كالعملِ في المزارعِ والمناجمِ. تذكر ما يُردده الناس عن أساطير الصيادين في الماضي، حين ساعدوا الناسَ على النجاةِ من أخطارِ ما بعد الكارثةِ حتى تأسيس ملاذ، إلا أنهم لم يعودوا الآن إلا سيفًا مسلطًا على رقابِ قاطني ملاذ.

كان يشعر بغيظ تجاه استسلام قومه ورضاهم بالأمرِ الواقع، أكثر من كراهيته لظلم الصيادين واستبدادهم، يثير غَضَبه سَعْيهم الدائم لإشباع شهواتهم والبحث عن الطعام والشراب بدون التفكير في تغيير هذه الحياة المقيتة التي يحيونها، أحيانا يسأل نفسه ما السبب الذي يدفعهم للبقاء على قَيْدِ الحياة؟ ما الذي يدفعهم للتكاثر مثل ذباب المستنقع؟ ما الذي يدفعهم للاستمرار في هذه الحياة المقيتة؟ لم يجد أبدا إجابة على أسئلته؛ ولكنها مجرد نفثات غاضبة يطلقها صدره من آنٍ لأخر.

كان يسير وسط الأعشاب البرية، وتلك الشجيرات التي نبتت رغمًا عما عانته الطبيعة من الكارثة، حتى وصل إلى ضفافِ النيلِ، ومياهُه الصفراءِ الداكنةِ، وطبقةٍ من الضبابِ البارد تعلو سطحه، فرفع يده إلى فمه وأخذ يُصَفِر بنغمةٍ رتيبةٍ مميزة، حتى سمعَ صوتُ صفيرٍ مماثلٍ يتردّد من الضفةِ الأخرى، فجلس منتظرًا وسط الضبابِ الباردِ وهو يتأمل مياه النيل، يُقال إنه كان في الماضي أزرق اللون، كما كانت حياةُ الناسِ أكثر يُسرًا وسهولة قبل حلولِ الكارثة ولا تشبه الشكل البائس الذي يعيشونه الآن! لم يَعِشْ بنفسه تلك الكارثة؛ فقد حدثت مُنذ عقودٍ كثيرة أو ربما قرون من يدري! فقد توقف الناس عن استخدامِ التواريخِ، ولم يَعُدْ هناك سوى حكايات متناثرة يتلوها العجائز والمسافرين حول حلقات النار في ليالي الشتاء الباردة، وككل الحكايات يشوبها الكثير من المبالغات.

تروي الحكايات عن حرب عظمى حدثت بين البشر، وصراعات على موارد الطاقة أدت لاستخدام البشر لأكثر أسلحتهم تطورًا وفتكًا، حتى انهارت العديد من الدول وفني ملايين البشر، ولم يتبق منهم إلا أعداد قليلة تكافح من أجل البقاء في تلك البيئة القاسية، وكانت ملاذ هي أول مدينة أقيمت في مصر بعد انهيار الحضارة على إثر الحرب العظمى، وأطلق عليها قاطنيها اسم ملاذ لاعتقادهم أنها الملاذ

الأخير للبشرية وأطلق عليها الباحثين عن الأمل اسم مدينة البعث.

كان قاسم يَشْعُر بألم شديد يفوق ما يشعر به مَنْ يحيطون به، فهو مِنَ القلةِ التي تعرف القراءة، وقد حرصَ جدهُ على زرع هذا الاهتمام بداخله مُنذ صغره، ولديه في منزله الصغير عددًا من الكتبِ الصفراءِ القديمة التي أعاد قراءتها مرارًا وتكرارًا، فجعلته ملًما بالحقيقة أكثر من غيره ممن يعانون نفس ظروفه، ولعل هذا الجهل هو ما يحميهم من الإحساس بألمٍ كالذي ينتابه، تذكر في ذلك الوقت بيت لشاعر عربي قديم من زمنٍ سحيق أخبره جده أن اسمه المتنبي يقول:

ذو العَقلِ يشقى في النّعيمِ بعقله وأخو الجَهالَةِ في الشّقاوَةِ يَنعَمُ

فجأة سمع صوتًا معدنيًا وشيئًا ما يشق الضباب قاطعًا مياه النيل، كان قاربًا معدنيًا يحركه رجلٌ ملثمٌ باستخدام محرك يدوي بدائي، وبدون أن يتبادل معه قاسم كلمةً واحدة؛ قفز في القارب وألقى إلى الرجل بعملة نحاسية قبل أن يعكس الرجل حركة قاربه ليبحر تجاه الضفة المقابلة، هذا الرجل هو واحدٌ من قاطني القرى الصغيرة خارج ملاذ التي تقع على ضفافِ النيل، وهم يفضلون الصمت كما أنهم ليسوا ودودين تجاه قاطني ملاذ، إلا أن هذا القارب الميكانيكي هو وسيلة قاسم الوحيدة لعبور النيل إلى الضفةِ الأخرى.

لاذ قاسم بالصمتِ بدوره حتى وصلَ إلى الضفةِ الأخرى، فقَفَز من القاربِ وسار وسط أطلالِ ما كان يسمى في العصور القديمة بالقاهرة، حينما استطاع الناسُ بناءَ المباني الشاهقةِ والسير في الطرقاتِ الممهدةِ باستخدام مركبات حديدية تتحرك بالوقود، كما استطاعوا الطيران في الهواءِ وشق المحيطاتِ واستطاع الانسان أن يسافر من بلد لأخرى في ساعاتٍ قلائل، أما الآن فقد يعيش الإنسانُ حياته كلها بدون أن يغادر قريته، أو يبتعد عنها مسيرة بضعة أيام، وأنى له فعل

ذلك وقطاع الطرق والوحوش البرية والأخطار التي لا حصر لها متربصةٌ به في كل زاوية وكل منعطف طريق.

لمح بعض الناسِ يَخْتَلِسون النظر إليه من نوافذ منازلة الصغيرة، تلك يتكون أغلبها من أطلالِ مباني ما قبل الكارثة، تلك التي صَمَدت منها، ممتزجةُ ببعض المباني البدائية الطينية، كان يعلم أن قيامه بالنبشِ بالقربِ منهم سيثيرُ عدائيتهم تجاهه، فاستمر في سيره حتى غابَ عن أنظارهم، فأخذ يبحث بين الأطلال المترامية عن شيءٍ صالح للاستخدام. لم يكن هناك الكثير، فبعد مرور فترة طويلة على الكارثة لم يبق إلا القليلُ مما يُمكن الاستفادة منه حقًا. بمرور الوقت انقشعت السحب وبدأت الشمس نلقي بأشعتها الساخنة على قاسم أثناء نبشه بين الاطلال فجعلته يتصبب عرقًا، ولكنه استمر في عمله بحماس، ومن آنٍ لآخر كان يَعثرُ على شيءٍ بسيط قد ينفعه لاحقًا فيضعه في حقيبته القماشية المعلقة وراء ظهره، إلا أنه ما لبث أن عثر على بعض المركبات الحديدية متجمدة في موضعها مترامية بلا نفع، إلا نزع بعض الحديد من هيكلها المعدني وبيعه للحدادين في ملاذ، كانت المركبات التي عثر عليها قد انتزع معدنها كله وتركت كهيكلٍ عظميّ لجثةٍ بالية، الا أنه لم يستسلم سريعًا فأخذ يفتش المركبات جيدًا في الثغرات الضيقة التي لا تصل إليها الأيدي بسهولة، وفجأة التمعت عيناه بسعادةٍ حينما عثر في إحداها على بعض التروسِ الصغيرة، حاول انتزاعها ولكنها كانت مثبته جيدًا في موضعها، فاستل خنجرهُ من جنبه واستعمله في تحرير التروس مما علق بها بمرور السنين من صدأ وتراب، حتى استطاع انتزاعها من موضعها أخيرًا فصاح في فرحة ثم وضع التروس في حقيبته القماشية.

***

أدركَ قاسمُ بنظرةٍ إلى السماءِ أن الشمسَ قد أوشكت على الغروبِ، وبقائه متأخرًا خارج ملاذ بعد غروبِ الشمسِ هو أمرٌ خطيرٌ للغاية، فقرر أن يحملَ حقيبتَه ويعود أدراجه، قاطعًا الطريق بين أطلال القاهرة القديمة، عابرًا النيل إلى الضفةِ الأخرى حيث تَجْثُمُ مدينة ملاذ، ولمح من بعيد العائدين من المناجم والمزارع وهم مجهدين، يتقدمهم الصيادون على أحصنتهم يقودونهم كالقطعان، إلا أن قاسم تجاهلهم وهو يعبر البوابةَ قاصدًا سبيله، فاستوقفه أحد الصيادين الواقفين على البوابة قائلًا:

– مهلا يا هذا، أرني ما في حقيبتك تلك!

فقال له قاسم بعصبية:

– وما شأنُك أنت؟

فقال له الصياد وأصابعهُ تلتف حول مقبضِ سيفه المغروس في غمده:

– فلتنتبه إلى كلماتك إذا أردتَ أن تعود إلى أهلك سالمًا أيها الفتى.

ثم انحنى وهو ينظر في عينيه:

– فنحن من نحافظ على سلامة الجميع هنا، هل تفهمني؟

ابتلع قاسم غضبه وهو ينتزع حقيبته ليناولها للصياد، الذي أخذ يعثرُ ما بها على الأرضِ، ثم قال ساخرًا:

– كلها قمامة تليق بنباش مثلك.

ثم تبادل الضحكَ مع الصيادين الأخرين، فيما أخذ قاسم يجمع ما ألقاه الصياد أرضًا ويعيده إلى حقيبته، وعلقها على ظهره مجددًا مبتعدًا عن الصيادين وهو يتمتم بسبابٍ خافتٍ لم يصل إلى مسامعهم.

سار قاسمُ وَسَطَ شوارعِ مدينة ملاذ المرصوفة بالحجارة، ومبانيها الصخرية ذاتَ النمطِ الجافَ، التي تتكون من طابقٍ أو طابقين، المختلطة بأطلال بعض المباني القديمة من عصر ما قبل الحرب العظمى. شاهد الناسَ العائدين من أعمالهم الشاقة بالمزارع والمناجم وعلى ملامحهم علامات الاجهاد، والأطفال الصغار والنساء يستقبلن آبائهن وأزواجهن العائدين إلى البيت بسلامة، فيما قطع قاسم طريقه متجهًا إلى مقاطعة الحدادين التي يتصاعد الدخانُ بكثافةٍ من مداخنِ بعض مبانيها الصخرية، المميزة للحدادين صانعي الأسلحة والدروع، الذين تشتهر بهم المدينة، فأغلب الحدادين يستقرون في تلكَ المقاطعةِ، لقُربها من البابِ الغربي لملاذ حيث تأتي العربات الخشبية المحملة بالمعادن من مناجمِ الصحراءِ الغربية. وصل قاسمُ إلى مبنى مشابه يحمل أعلاه رمز السيف والدرع المميز للحدادين، وما إن دلف للداخل حتى رأى حدادًا ضخمَ الجثةِ يُمسك بمطرقةٍ ضخمةٍ تتناسب مع حجمه، يطرق بها على سيفٍ متوهجٍ باللونِ الأحمرِ، فتوقف الحدادُ عن الطرقِ وهو ينظر إلى قاسم الذي قال له:

– مساءُ الخير يا أُوَيْس.

فقال له أويس باسمًا:

– مساء الخير يا رجل، هل معك شيئًا لي اليوم؟

قال قاسم وهو ينتزع حقيبته من على ظهره:

– رُبما.

وقام بإخراج القطع الحديدية والتروسِ وما تحصل عليه اليوم من النبش بين الأطلال، فأخذ أويس يتأملها بإعجاب وهو يقول:

– قطع ممتازة، يمكن صهرها واستخدامها في صناعة بعض السيوف.

ثم أشار لقطعة فولاذية ملتوية وملتفة حول نفسها وقال:

– وما هذا؟

فقال قاسم وهو يعيده لحقيبته:

– هذا زُنْبُرُكُ تحصلت عليه من احدى المركبات القديمة، وهو ليس للبيع.

فضحك أويس وقال:

– لديك هواية غريبة في اقتناء تلك الأشياء يا رجل!

ثم قام بتنقيد قاسم بضعة عملات نحاسية ثمن ما تحصل عليه من معادن، فقال له قاسم:

– هذا فقط أيها البخيل؟

فزفر أويس وقال:

– العمل تلك الأيام ليس كما قبل!

فربت قاسم على كتفه وقال:

– لا عليك.

فقال أويس وهو يعود لطرق السيف المتوهج وقال:

– هناك طلبية أسلحة سيستلمها مني الصيادين اليوم، قد أقوم بدعوتك للعشاء في احدى حانات الحي الشرقي إذا أجزلوا العطاء كعادتهم.

قال الكلمة الأخيرة بسخريةٍ لاذعةٍ فهمها قاسم، وبعدما انتهى أويس من طرق السيفِ قام بغمسه في دلوٍ من الماءِ البارد ليصدر

صوت فحيحٍ مرتفعٍ والماءُ يبردَ المعدنَ المتلهبَ، والبخارُ يتصاعد منه بكثافة، وفجأة سمعوا صوتَ خطواتِ أحصنةٍ تقطع الشارعَ الصخري بسرعة وسوطٍ يفرقع في الهواء، وسرعان ما ظهرت عربة خشبية يجرها الأحصنة تقترب من ورشة الحدادة قبل أن تهدأ حركته لتتوقف أمام باب الورشة ويقفزُ منها بعض الصيادين، يتقدمهم قائدهم وهو يقول موجهًا حديثه لأويس:

– هل جهزت الأسلحةَ أيها الحداد؟

أشار أويس لعددٍ من السيوفِ والرماحِ المعلقة على الحائط وقال:

– جاهزة يا سيدي.

وبدون كلمةٍ أخرى بدأ الصيادين في نقل الأسلحة إلى عربتهم الخشبية، وبعد ذلك ألقى قائد الصيادين بصرةٍ مليئة بالعملاتِ النحاسية على المِنضدةِ الخشبية أمام أويس، ففتحها وعد العملات بنظرةٍ سريعة ثم قال محتجًا:

– ماذا؟ هذا فقط؟

استل الصياد سيفًا حادًا من غمده ووضع ذبابته على بعد سنتيمترات من وجه أويس وهو يقول:

– وهل هناك مشكلة؟

تبادل أويسُ النظراتَ مع الصيادِ ثم قال:

– لا، لا مشكلة.

شاهدَ قاسمُ كل ما يحدث وهو يعقدُ حاجبيه في ضيق، وكان على وشكِ أن يتكلم، فنظر إليه أويسُ نظرةً ذات مغزى، فلاذ بالصمتِ، واستدار الصياد معيدًا سيفه إلى غمده وهو يغادر المكان يتبعه

الصيادين الأخرين، وكان آخرهم صياد شاب يفوق قاسم عمرًا بعدة أعوام يبدو على وجهه الكبر والغرور والذي تعمد إزاحة قاسم من طريقه بضربة قوية على صدره فقال له قاسم بغضب:

– اللعنة عليك!

تفاجئ الجميعُ بكلمةِ قاسم، وحاول أويس أن يتدارك الموقفَ وهو يقول:

– المعذرة لم يقصد ...

ولكن الصياد دفعهُ جانبًا وهو ينظر إلى قاسمِ بغضبٍ شديدٍ قائلا:

– ماذا تقولُ أيها الحقير؟

لم يبال قاسم بنظراته الغاضبة وقال:

– أقول اللعنة عليك وعلى كُلّ الصيادين.

استل الصيادُ سيفه ورفعه ليهوي به على قاسم الذي استلَ خنجرهُ من غمده بحركةٍ حادة وصد ضربةَ الصيادِ ولكن نصل الخنجرِ انكسر ليكمل السيف طريقه ويصنع جرحًا حادًا داميًا بجانب عين قاسم اليسرى، وقبل أن يهوي الصياد بسيفه مجددًا تدخل قائدُ الصيادين وأمسكَ بيده وقال:

– توقف!

أشار الصياد إلى قاسم وقال بصلف:

– ولكن يا سيدي ألم تسمع ما قاله؟

فقال القائد بصرامة:

– قلت لك توقف!

openkan.com

صمت الصيادُ لوهلةٍ حتى بدا أنه لن يطيع أوامر قائده، قبل أن يعيد سيفه إلى غمده بحركةٍ حادة وهو يتوجه مع بقية الصيادين إلى العربة، بينما تقدم القائدُ ناحية قاسم ومد يدهُ ليساعده على الوقوف، وقال له:

– في المرةِ القادمةِ انتبه جيدًا لكلماتك؛ فقد توقعك في مشاكل أكبر منك.

تجمد قاسمُ في موضعه وهو يراقب القائدَ يلحق بالصيادين، قبل أن يبتعدوا بعربتهم تجرها الأحصنة وحوافرها تطلق الشرر على أرض ملاذ الصخرية، حتى تواروا في إحدى المنحنيات، فاقترب منه أويس وقال بصوتٍ منفعل:

– أنت أكثر إنسانٍ محظوظٍ أراه في حياتي يا رجل، لم يَنْج أحدٌ من غضبةِ الصيادين من قبل!

رفع قاسم يده إلى عينه يتحسس الجرحَ الذي ينبض بنبضاتِ ألمٍ حارقة، لقد جرح السيف جبهته ووجنته ونجت عينه من الضربةِ بالكاد، فقال له أويس بقلق:

– هل أنتَ بخير؟

فابتسم قاسم ابتسامة باهتة وقال:

– لا تقلق، مجرد خدشٍ بسيط.

أحضر له أويس بعض الماء البارد المُنَقّى ليغسل جرحه، ثم نصحه قائلًا:

– يجب عليك المرور على العطار كي يضمدها لك ببعض الأعشاب.

فقال له قاسم وهو يحمل حقيبته:

– سأفعل.

ثم غادر الورشةَ ليجد نفسه مجددًا في شوارع ملاذ، وقد غاب أخرُ شعاعٍ للشمس وحل الظلامُ وأغلقت المدينةُ أبوابها، وبدأت الأماكنُ التي لا تَنْشَطُ إلا ليلًا تفتح أبوابها، فشاهد الحانات والخمارات تستعد لاستقبال الزائرين المحملة جيوبهم بالعملات النحاسية، ومن آنٍ لأخر كان يشاهد فتاةَ ليلٍ واقفة أمام أحد المواخير وهي تعرض مفاتنَ جسدها لمن يملك الثمنَ المناسبَ، فأشاح قاسم بنظره مطرقًا في الأرض متجاهلًا محاولتهن لإغرائه، وفجأة تسلل إلى أنفه رائحة شواءٍ، فنظر ناحية مصدر الرائحةِ ليجد بعض الأشخاص متحلقين حول حلقةٍ من النار وهم يقومون بشواء حيوانٍ ما؛ ربما يكون خروفًا وربما يكون كلبًا فالناس لم تعد تفرق بين هذه الأشياء كما كانوا يفعلون في الماضي حسب ما يقول جده، فالدين كان يمنع الناس من فعل أشياء كثيرة ولكن يبدو أنهم لم يعودوا الآن يكترثون لهذا الأمر كثيرا، ورُغْم أن الرائحة جذبت أنفه إلا أنه لم يَسْتَطِع الاقترابَ منهم وأخذ يفكر، هل هم صيادون؟ إن كان كذلك فعليه أن يتجنب أذاهم. سمع ضحكاتٍ لا مباليةٍ خشنة من المجموعةِ المتحلقة حول النارِ، فتسارعت خطواته وهو ينعطف في أحد الشوارع الجانبية وصدى أصوات الضحكات يبتعد ويخفت.

حي الرماد

سار قاسمُ بتثاقلٍ متجهًا ناحية مقاطعةِ الرمادِ، إحدى مقاطعات ملاذِ الفقيرة التي يقع بها بيته، والتي تكتسب اسمها من لونِ الطينِ الرماديّ الكئيبِ المميز للبيوت المبنية من الطوبِ اللَّبِن، وما أن دلف إلى الحي الفقير الذي يقع فيه بيته حتى لمح جده وهو يقفُ أمامَ البابِ ويبدو على وجهه القلقُ بينما هناك امرأة قصيرة وممتلئة قليلًا تمسك بيده بينما يتكئ بيده الأخرى على عصاة خشبية، وما أن اقترب قاسم منهما قالت المرأة لجده:

– ها قد عادَ يا أبي، أخبرتُكَ ألا تقلق.

لوح جدُه بعصاتِه ناحيتُه وهو يقول له:

– كم مِنْ مرةٍ أخبرتك ألا تغيب هكذا وتتأخر حتى حلول الليل؟

قال قاسم بحدة وهو يدخل البيت:

– أنا لم أعُد صغيرًا لا داعي للقلق عليّ هكذا طيلة الوقت.

وما أن دلف للبيت حتى سقط ضوء المصباح الزيتي على وجهه، فقالت عمته في جزع:

– ما الذي حدث لك؟

فقال قاسم:

- لا شيء!

قال له الجد بخوف وهو يتأمل الجرح:

- هل افتعلت عراكًا مع أحد الصيادين مجددًا؟

لم يجب قاسم فقال له الجد:

- يجب أن تتعلم الكفَ عن ذلك، لن تنفعنا بشيء إذا فقدتَ حياتك في إحدى تلك المشاجرات.

فقال له قاسم:

- لن يجرؤوا على قتلي، أعرف ذلك!

تبادل الجد والعمة نظرات حذرة ثم قال الجد:

- ما الذي تعرفه بالضبط؟

نظر قاسم ناحية السقف وقال:

- لا أدري، فرُغْم تعمد الصيادين معاملتي بصلف وكبرياء إلا أنهم يخشون إيذائي!

ساد الصمت بضعة لحظات قبل أن يقول الجد بلهجة مرتجفة:

- هذا لحسن حظك، وليس في كل مرة تسلم الجرة.

فاحتضنته عمته وقبلته ثم قالت له:

- سأجهز لك شيئًا تأكُله.

قالت كلماتها الأخيرة بحنانٍ وعاطفةٍ جارفة، فهي لم تنجب أبناء ولذلك أحبت قاسمُ كأنه ابنها، ولطالما انحازت إليه حينما يغضب الجدُ من بعضِ تصرفاته الطائشة، وكذلك أحبها قاسم كأنها أمه التي

obeikan.com

لم يَرَها منذ وعي على الدنيا، فقد ماتت أثناء ولادته حسبما أخبره جده، كما ماتَ أبيه بعد ولادته بفترةٍ قصيرة فكبر يتيمًا لا يعرف أبًا ولا أمًا، كما أن جده لا يتحدث كثيرًا عن أبيه بشكل يثير حيرته، وما أن خطى قاسم أعتابَ الفتوةِ حتى اكتسب طبيعةً صامتةً، فلم يَعُدْ يسأل، أو يَتَعجَّب، فقط يتأمل الحياة من حوله كأنه عابر سبيل لا يعنيه شيئًا مما يحدث حوله.

عادت عمته وهي تحمل طبقًا فيه قطعةٌ من الجبنِ ورغيفٌ من الخبزِ وضعته أمامه، فوضع قاسم حقيبته جانبًا وجلس على الأرضِ يتناول طعامه في صمت، وبعد مرور بضعة دقائق قالت عمته لكسر الصمت بينه وبين جده:

- متى سيتزوج قاسم؟ لقد أكمل الثامنة عشر ولم يتزوج بعد كأقرانه، ما رأيك يا أبي؟

أجابها الجد قائلًا:

- يمكنه اختيار من تعجبه من فتيات الحي، وسأزوجه بها.

ارتسمت ابتسامةٌ ساخرةٌ على ركنِ فمِ قاسم وتجاهل الحديثَ كأنهما لا يتحدثان عنه، وهو يلوك الخبزَ الممتزجَ بالجبنِ في فمه، وبعد انتهائه من الطعامِ قال:

- لقد شبعت.

فقال له جده:

- قُل الحمد لله.

لم يُجبه قاسم بل أدارَ ظهره وهو يحمل حقيبته مجددًا ويقول:

- سأذهب إلى غرفتي.

لم يعلق جده ولم ينتظر قاسم منه ردًا بل ارتقى درجات السلم الطيني بخطواتٍ قافزة، حتى دلف إلى حجرته الصغيرةِ التي تقطع بالطابق الثاني من البيتِ الطيني المتماسك رغم تكوينه البدائي، وبجواره بنفس الطابق تقع غرفة عمته وزوجها، فيما تقع غرفة الجد بالطابق السُفليّ من البيتِ.

بأحد أركان غرفة قاسم يوجد سريرٌ بدائيٌ يتكون من بضعة صناديق خشبية وتعلوها حشية قماشية سميكة ينام عليها وبجواره تتراص مجموعة من الكتب الصفراء العتيقة، رفيقة قاسم في وحده، والتي اعتاد على قراءتها وحيدًا على ضوء المصباح الزيتي الصغير الذي يمتلكه، وأحيانا يستغرق في القراءة حتى أوقات متأخرة.

أول ما فعله قاسم بعد انفراده بنفسه في غرفته هو إفراغ حقيبته من محتوياتها، وتفحصها بدقةٍ على ضوءِ المصباحِ الزيتي، ثم تناول من كومة الكتب الصفراء القديمة كتابًا يتحدث عن الأدوات الميكانيكية البسيطة، وأخذ يقلب صفحاته حتى توقف عند صفحة ارتسم بها شكل الزنبرك اللولبي، فتفحصها بعينيه سريعًا ثم قال لنفسه بظفر:

– كما خمنت تمامًا.

ثم أزاح الغطاءَ من على آلةٍ عجيبة مركبة من أشكالٍ متنافرة، ثم أضاف الزنبرك لآلته بحرص مستخدمًا بعض الأدوات والمفكات التي صنعها بنفسه، وبعدما انتهى من عمله وضع عليها الغطاء مجددًا وأخرج ورقة صفراء وقنينة من الحبر الذي صنعه من اذابة بعض الشحوم القديمة، وبقلمٍ خشبيٍّ مدببٍ أخذ يرسم بعض الأشكالِ الهندسيةِ على الورقةِ، وبعد ذلك طواها ووضعها بحرصٍ في حقيبته، وأحس حينها بالعرقِ يتصببُ على جبينه ففتح النافذةَ الصغيرةَ في حجرته ليستمتع بنسمةِ هواءٍ باردة تداعبُ وجهه، ثم نظر ناحية

الحيوانات الصغيرة التي تلهو في باحةِ البيتِ الخلفية، فعمته وزوجها يمتلكان مزرعةً بها بعض الحيوانات، فهناك الأغنام التي تصدر صوتَ الثغاءِ الذي يزعجه أحيانًا أثناء الليل، وهناك بقرة واحدة تحلبها عمته، كما أنها تُربي مجموعةً من الدواجنِ تجمع بيضها كل صباح. رُغم أن المزرعة صغيرة ولكنها تُعد ثروةٌ مقارنةً بما يمتلكه الناس في تلك الآونة، وأحيانا ما يرتحلُ زوجُ عمته مع قوافلِ التجارةِ إلى الجنوبِ لبيع بعض منتجات الألبانِ والجُبْنِ والأشياء الأخرى إلى مدينة أبيدوس التي سمع الكثيرَ من الحكاياتِ عنها من زوجِ عمته، فهو يقول له أنهم قد ارتدوا لعبادةِ الآلهةِ القديمةِ بعد الكارثة، وأنهم قومٌ منغلقون ومتحفظون ولهم الكثير من العادات الغريبة، ولا يقبلون الغرباءَ بينهم إلا بغرضِ التجارةِ.

شعر قاسمُ أن الهواءَ يزدادُ برودةٍ فأغلق النافذةَ واتجه إلى سريره ليتمدد عليه ويضع على جسده غطاءً من الصوفِ غزلته له عمته، ثم نفخ في المصباحِ الزيتي ليطفئه، قبل أن يغرق في نومٍ عميق.

***

استيقظ قاسمُ من نومه مع صياحِ الديكِ القادم من الباحةِ الخلفيةِ للبيت، فتمطى متثائبًا وهو يعتدل من رقدته، وفتح نافذة غرفته ليستقبل أشعة الشمس، ولكن الشمس اختارت هذا اليوم أن تتوارى وراء السحبِ، وتشبع الهواءُ برائحةِ الندى المختلطة برائحةِ الغُبارِ، فعقد قاسمُ حاجبيه وقال لنفسه:

– يبدو أنها ستُمطر اليَوم!

سمع صوتَ عمته تناديه من الطابقِ السفليّ، فأسرع قافزًا درجات السلم الطيني فقالت له عمته:

- زوجي لم يَعُد من سفره بعد، وانا لا أقوى على الاعتناءِ بالمزرعةِ وحدي، فما رأيك أن تساعدني قليلًا اليوم؟

أومأ قاسم برأسه موافقًا وهو يتثاءب، قبل أن يقول وهو يتلفت حوله:

- أين جدي؟

فقالت له:

- في غرفته لم يخرج بعد.

هز رأسه في تفهم، فهو يعرف أن جده يحبُ أن يقضي الوقتَ منذ بزوغِ الفجرِ في غرفته ليؤدي طقوسًا لم يعد أحدًا يؤديها، ويمسك بكتابه المفضل ليقرأ فيه حتى ترتفع الشمسُ في الأفقِ.

خرج قاسمُ من بابِ البيتِ الخلفي الذي يؤدي إلى مزرعةِ الحيوانات، فوجدها بالفعل في حالة بائسة وتحتاج إلى تنظيف، كما أن الحيوانات المسكينة بدا عليها الجوعُ الشديدُ، فبدأ قاسم بهمةٍ في جمعِ بعض النباتات البرية ووضعها في أكوام صغيرة أمام الحيوانات، التي تجمعت حوله وهي تصدر أصواتًا مختلفةً تعبرُ عن تحمسها للطعام. كان هناك ماعز صغيرة لم تستطع تخطي الحيوانات الكبيرة لتصل إلى الطعام، فأمسك بها قاسم وجلس على الأرض وبدأ يضع في فمها بعض الأعشاب وهي تتناولها مطلقة ثغاءً رفيعًا من حينٍ لأخر.

بعد أن انتهى قاسم من مهمته في ترتيبِ المزرعةِ وإطعام الحيوانات، أعدت له عمته إفطارًا مكونًا من بيضٍ وجبن، فجلس ليفطر معها ومع جده الذي قال له:

- هل ستخرج اليوم؟

اومأ قاسم برأسه دون أن يجيب، فقال له الجد:

– ولكن الجوَ غائمٌ اليوم، وأخشى أن تحدث عاصفة وأنت بالخارج!

فقام قاسم وهو ينفض يديه من أثر الطعام وقال له:

– لا تقلق، سأحرص على العودةِ سريعًا.

غادر قاسم البيتَ بعد الإفطارِ حاملًا حقيبته على ظهره، متجهًا ناحية ورشة أويس، فوجده منهمكًا على الطاولة يصقل شيئًا ما فقال له:

– صباح الخير يا أويس، أرى أنك بدأت العمل مبكرًا كعادتك.

رفع أويس رأسه وقال ممازحًا:

– ومن أين يأتي الخير وأنت متجهم هكذا طوال الوقت يا راجل؟

ابتسم قاسم وقال له:

– ما هذا الذي تصقله؟

فقال له أويس:

– شيئًا ما أعددته من أجلك.

وقبل أن يسأله قاسم المزيدَ من الأسئلةِ رفع أويس يده بخنجرٍ لامعٍ جديدٍ، وقال له:

– أعددت لك هذا، بدلًا من الخنجرِ الذي كسره هذا الصياد.

ثم أضاف مازحًا:

– كما أنه تعويضًا لك على دعوةِ العشاءِ التي لم تتم.

أمسك قاسم الخنجر بانبهار، كان نصله لامع وحاد، ومقبضه مصنوع من العاج ببراعة، فلوح به قاسم عدة مرات في الهواء وهو يقلبه في يده قائلًا:

– متى صنعت تلك التحفة الفنية؟

فقال له أويس:

– لقد استيقظت اليوم قبيل الفجرِ للعمل عليه، وأخذ مني بضعة ساعات.

علق قاسم الخنجر في حزامه وهو يقول:

– لا أعرف كيف أشكرك يا أويس!

فلوح أويس بيده وهو يقول:

– لا عليك يا رجل!

فابتسم قاسمُ وانتزع حقيبته من على ظهره وتناول منها الورقةَ التي رسمها بالأمسِ، وقال له:

– أريدك أن تصنع لي هذا الشيء.

تأمل أويس الشكلَ المرسومَ على الورقةِ ثم قال:

– المزيد من أشيائك العجيبة.

ثم تنهد وقال:

– حسنًا، ومتى تحتاجها؟

فلوح له قاسم بيده وهو يقول:

– اليوم.

obeikan.com

فقال أويس مستنكرًا:

– ماذا؟ اليوم! انتظر!

ولكن قاسم غابَ عن ناظريه، فهز رأسَهُ في استسلامٍ وقال:

– لن يتغير هذا الفتى أبدًا.

ثم أمسك بالورقةِ وفردها أمامه وهو يقول:

– والآن ماذا لدينا هنا؟

obeikan.com

العاصفة

عبر قاسمُ بوابات ملاذ متجاهلًا مضايقات الصيادين، متجهًا ناحية النيلِ كي يعبره إلى الضفةِ الأخرى كعادته، إلا أن الضباب في ذلك اليومِ كان أكثر كثافةً من المعتادِ، ولاذ المراكبي الملثم بالصمتِ كعادته، حتى عبر بقاسم إلى الضفةِ الأخرى، فقفز قاسمُ من القاربِ ليشق طريقه عبر أطلالِ القاهرة، نابشًا من آنٍ لآخر بين أكوامِ الخردةِ التي يعثرُ عليها. فجأة رأى شيئًا أثار انتباهه، كانت أثار حوافر مرتسمة على الأرض في شكلٍ نابين متقابلين، أدرك بخبرته في قص الأثر أنها آثار حوافر غزال، فأحس بالحماسِ يتدفقُ في عروقه، وتلفت حوله لكي يتأكد أنه لا أحد حوله يشاركه غنيمته، ثم انحنى ليتأمل أثارَ حوافرِ الغزالةِ عن قربٍ، ثم وضعَ يدَهُ على الأرضِ بجانب أثر الحافر وضغط على الأرضِ بكف يده وقارنَ بين الشكلين ثم قال لنفسه:

– لم يَمْضِ وقتًا طويلًا على هذا الأثر، تلك الغزالة قريبة من هنا.

أخذ يتقفى الأثرَ بحرصٍ وبمرور الوقتِ بدأت الأثارُ تصبح متقاربةً من بعضها البعض وأقل عمقًا، مما يعني أن الغزالةَ بدأت في الركضِ، فعقد قاسم حاجبيه وقال لنفسه:

– يبدو أنها أحست بخطرٍ ما.

توترت يده على مقبضِ خنجره وهو ينظرُ حوله، فلم يتبين المكانَ المحيط به، يبدو أنه ابتعد كثيرًا عن ضفةِ النيلِ وسار وسط أطلالٍ

مجهولةٍ له. في تلك اللحظة نسي أمر الغزالة وبدأ يفكر في أن يعود أدراجه مستغنيًا عن فريسته. رفع رأسه ناحية السماء المكتظة بالغيوم، محاولًا معرفة الوقت، ولكن بدون الشمس لم يكن لديه فكرة عن الوقتِ الذي مرَ عليه وسط تلك الأطلال، تمنى ألا يكون قد تأخر أكثر من اللازم وإلا سيعلق في هذه الناحية من النيل، وسيضطر للمبيت وسط الأطلال! أثارت الفكرةُ القشعريرةَ في جسده فاستدار ليعود أدراجه، ولكنه تسمر في موضعه على صوتِ زمجرةٍ قادمة من خلفه. تجمدت الدماءُ في عروقه، واستدار ببطيء محاذرًا القيام بأي حركة حادة، واتسعت حدقتاه عندما وجد نفسه وجهًا لوجه أمام ذئبٍ شرسٍ يكشر عن أنيابه وهو يزمجرُ في غضبٍ، امتدت يدُ قاسم بحذرٍ إلى مقبضِ خنجره، ولكن عينا الذئبِ التقطتا تلك الحركة فقفز من موضعه لينشب مخالبه وأنيابه في جسد قاسم، فتفادى قاسم هجمةَ الذئبِ بانحناءةٍ سريعةٍ، فمزقت أنيابُ الذئبِ طرفَ ردائه، عاد الذئبُ بعدها يدورُ حول قاسمٍ وهو يطلقُ زمجرته العدائية، فيما أشهر قاسمُ خنجره أمام وجهه، مستعدًا لهجمةِ الذئبِ التالية. مع قفزة الذئبِ انحنى قاسم جانبًا وهو يضرب الذئبُ بخنجره فشق جانبه ليسقط الذئب على الأرضِ ويعوي بمزيجٍ من الألمِ والغضبِ، ولم توقفه ضربة قاسم فاستعد للهجوم مجددًا، وتراجع قاسم بحذر، ولكن قدمه تعثرت بأحد قطع الحجارة المتناثرة على أرض الأطلال، فتعثر ساقطًا على الأرضِ، واستغل الذئبُ تعثر قاسم ليهجم عليه مجددًا، وشاهده قاسمُ يقتربُ منه فأغمض عينيه مستعدًا لاستقبال مصيره، ولكنه سمع الذئب يعوي بألم، ففتح عينيه ليجد الذئب ملقى على جانبه، وسهمٌ طويلٌ يخترقُ عنقه، فاتسعت عيناه في دهشة، ثم أخذ يتلفت حوله فلمح فتاةً تمسكُ قوسًا واقفةٌ بين الأطلالِ، كانت في مثل عمره تقريبًا، ذات شعرٍ أسودٍ فاحمٍ، وعينان عسليتان،

وترسم على وجهها نقوشًا حمراءً غريبة، فقال لها قاسم بدهشة:

– من أنتِ؟

ولكن الفتاة تراجعت لتختفي بين الاطلال، فقفز قاسم من سقطته وهو يقول:

– انتظري!

ولكن الفتاة تحركت برشاقةٍ كما لو كانت تحفظُ تلك الأطلالِ عن ظهرِ قلب، فتوقف قاسمُ في موضعه وهو يتلفت حوله، فرغم عدم استطاعته معرفة الوقتِ إلا أنه أدرك أن الشمسَ قد أوشكت على المغيب، مما ملأ قلبه بالخوف وهو يحاول شق طريقَ العودةِ. لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى تلاشى آخر أثر لضوءِ الشمسِ المتسللِ من وراءِ السحبِ، وأدرك قاسمُ أنه قد علقَ وسطَ تلك الأطلال، وكأن هذا لم يكن يكفيه ففتحت السماءُ أبوابها، وانهمرت الأمطارُ بغزارةٍ، والرياحُ الشديدةُ تصدمه في وجهه وتكادُ تسقطه أرضًا. تلفت قاسمُ حوله باحثًا عن مأوى، لم يكن أمامه إلا تلك المباني القديمة المرتفعة من عهد ما قبل الكارثة، وبعد فترة من التردد توجه قاسم ناحية أقرب المباني إليه وهو يرفع يده أمام عيناه لحمايته من الرياحِ الشديدةِ والأمطارِ التي ترتطم بجسده كحبات الرمال القاسية. ما أن دلف قاسم من باب المبنى واحتمى من الأمطار والرياح حتى أحس بالارتياح، كانت المرة الأولى التي يلج فيها إلى تلك المباني التي تجنبها منذ صغره، يتذكر حين رآها أول مرة وسأل جده إن كان هناك قوى خارقة قامت ببنائها، إلا أن جده أخبره أن البشرَ في العصورِ القديمة هم من بنوا هذه المباني، كان هناك العديد من الأشياء غير المفهومةِ بالنسبة له، بالتأكيد كان لها استخدامٌ ما في العصورِ القديمةِ، أما الآن لم تعد إلا أطلالًا تحمل أثرًا باهتًا من الماضي.

توجه ناحيةَ السلمِ وصعد إلى الطابقِ الثاني الذي لم يختلف كثيرًا عن الطابقِ السفلي، وبحث عن ركنًا آمنًا بعيدًا عن الرياح التي تتسلل من كل فتحات وشقوق المبنى المختلفة، لم يكن هناك نافذة واحدة يمكن إغلاقها، فتوارى قاسمُ في أحد الأركانِ وهو يستمعُ إلى صوتِ الأمطار والرياح بالخارج، وبعد ذلك لمعَ البرقُ التماعًا خاطفًا قبل أن يتبعه دوي الرعد الذي أثار الرجفةَ في جسدِ قاسم، وبعد ذلك بدأ يبحثُ عن شيءٍ يصلحُ لإشعالِ النارِ به، فأخذ يفتش في الغرفِ والأدوارِ المختلفة، وهو يسيرُ بحرصٍ شديدٍ، فأي جزء من المبنى من الممكن أن ينهار في أي وقت، ولكن هذا لم يحدث لحسنِ حظه، وأخيرًا وضع أمامه كومةً من قطعِ الأخشابِ والأوراقِ الصفراءِ القديمة والقطع القماشية والنفايات، أمامه الآن مهمة واحدة وهي اشعال النار في تلك الكومة. فأمسك بقطعتين من الأحجارِ المترامية في كل مكان وبدأ يصدمها ببعضها البعض حتى انطلق منها شرارةٌ صغيرةٌ أمسكت في أحد الأوراقِ، قبل أن تزحف ألسنةُ اللهبِ لتمسك ببقية الكومة وتبثُ بعض الدفيء في جسدِ قاسم.

***

تكوم قاسمُ بجوار النارِ محاولًا الخلود إلى النوم، ولكن هذا كان مستحيلًا بسببِ صوت انفجار البرقِ وزئير العاصفةِ الهوجاءِ بالخارج، فاكتفى بالاستماع إلى سيمفونية السماء الغاضبة، وهو يفكر في جده وعمته، لا شك أنهما قلقان أشد القلق عليه الآن، ولام نفسه لأنه لم يستمع إلى كلامِ جده عندما نصحه بألا يخرج، ثم أخذه تفكيره إلى الفتاةِ التي أنقذته والرموز الحمراء الغريبة على وجهها، فهي لا تبدو شبيهة بقاطني ضفاف النيل الذين ينقلون الناس عبر قواربهم الميكانيكية. تذكر فجأة رؤية تلك النقوش الحمراء مرةً أو مرتين من قبل، إنها تلك العلامة التي تميز المنبوذين، وهم قوم بينهم وبين ملاذ

عـداءٌ شـديدٌ ويكرههـم الصيـادون ويحـذرون منهـم، ولهـذا لم يرهـم مـن قبـل بالقـربِ مـن مـلاذ، هـل ابتعـد عـن مـلاذ لهـذا الحـد أثنـاء اقتفائـه المتهـور لتلـك الغزالـة!

فجـأة بـين أصـواتِ العاصفـةِ المختلفـةِ سـمعَ صوتًـا آخـرًا، صوتًـا قريبًـا منـه بداخـل المبنـى، وأدرك في خـوفٍ أنـه ليـس وحـده، فاعتـدل مـن جلسـته وانتـزع الخنجـرَ مـن حزامـه ليُشـهره أمـام وجهـه وهـو يقـول:

– من هناك؟ أظهر نفسك!

مـرت بضـع لحظـات مـن الصمـتِ قبـل أن يـرى قاسـمُ ظـلًا أسـودًا يتحـرك ويدخـل في دائـرة النـور، فسـقط ضـوء ألسـنة النـار المتراقصـة عـلى وجهـه، ليتبـدى أمامـه شـابًا صغـيرًا، أسـمر البـشرة أصلـع الـرأس، ويغطـي نصـفَ وجهـه وشـومٌ غريبـةٌ، فقـال لـه قاسـم وهـو مـازال مُشـهر خنجـره أمـام وجهـه:

– لا تتقدم خطوةٌ واحدةٌ أخرى!

فرفع الشاب يديه أمامه وهو يقول بنبرة هادئة:

– مهلًا، لا تقلق فأنا لا أنوي شرًا.

كانـت لهجتـه غريبـة، ويفخـمُ العديـدَ مـن الحـروفِ كأنـه ينطـق كلماتـه مـن حلقـه، فقـال لـه قاسـمُ بنـبرةٍ متسـائلة:

– تبدو غريبًا، من أين أنت؟

فقال الغريبُ:

– من الجنوبِ.

رفع قاسم حاجبيه مندهشًا وقال:

- الجنوب!

فأجاب الشاب:

- نعم، من أبيدوس.

انتابت الدهشة قاسم ثم قال له:

- وماذا تفعل هنا في الشمالِ؟

ارتسم الحزن على وجه الشاب وقال:

- كنت بصحبة قافلة متجهة إلى ملاذ، واعترضنا مجموعةٌ من قطاع الطرق، وقتلوا كل من بالقافلة، واستطعت انا التسلل والهرب متجهًا ناحية ملاذ، علني أجد قافلةً تعيدني مرةً أخرى إلى أبيدوس، حتى داهمتني تلك العاصفة، وخلت أني سأهلك، حتى لمحت ضوء النار من هذا المبنى، وأدركت أن به أحدًا، فلجأت إليه باحثًا عن المأوى.

ظل قاسم صامتًا وهو يتأمل الفتى، يبدو من ملامحه أنه أصغر منه ولا يشكل خطرًا، كما أن حكايته جعلت قاسم يشعر بالتعاطف ناحيته، فأعاد خنجره إلى حزامه ومدَ يده إلى الفتى مصافحًا وقال:

- اسمي قاسم.

فتأمل الفتى يده المدودةِ ثم صافحه بدوره وهو يقول:

- وانا اسمي سيا.

فقال قاسم وهو يجلس بجوار النار ويدعوه للجلوس بدوره:

- سيا؟ اسمٌ غريبٌ لم أسمع به من قبل.

فقال سيا وهو يمد كفاه أمامه ليستمد بعض الدفيء من النار المشتعلة:

– يعني المعرفة في اللغة القديمة.

نفخ قاسم في كفيه ليدفع بهما بعض الدفيء، وسأله:

– اللغة القديمة؟ هل تعني قبل الحرب العظمى؟

فقال له سيا:

– بل أقدم من ذلك بكثير، إنها لغة حضارة عتيقة حكمت مصر مُنذ آلاف السنين، ظلت آثارها باقية عبر العصور، نجت حتى من كارثةِ الحربِ العظمى والدمار الذي حاق بمصر كلها، فأدركنا حينها أن الآلهة تحوط تلك الحضارة بحمايتها، وأبيدوس هي وريثة هذا الحكم القديم بالحق الإلهي.

لم تعجب كلمةَ الآلهة قاسمُ، رغم معرفته بمعتقدات قاطني أبيدوس الغريبة، وما سمعه عنها من زوج عمته، ثم هز كتفيه بلا مبالاة، فقاسم كجُل ساكني الشمال لا يكترثون كثيرًا بشأن الأديان. بعد لحظاتٍ من الصمت قال له سيا:

– لقد رأيت في طريقي إلى هنا بعض المباني القديمة التي تشبه معابدنا، بالتأكيد رأيتها؟

فقال قاسم بتساؤل حذر:

– هل تعني خربة الجن؟

ضحك سيا وقال:

– تظنون أن الجن من بنوها! بل هم الآلهة.

فقال قاسم بلا اكتراث وهو يزود النار ببعض قطع الأخشاب لكيلا تذبل وتنطفئ:

– آلهةٌ أو جانٌ، هذا أمرٌ لا يعنيني.

بعد لحظاتٍ من الصمت أحس قاسم بالنوم يغالب جفنيه، ولكنه لم يرغب في النومِ في وجود هذا الغريب، فتماسك لكيلا يسقطُ في النومِ، إلا أنه بدون أن يشعر انسحب وعيه منه، وراح في نومٍ عميقٍ، لم يستيقظ منه إلا على ضوءِ الشمسِ المتسلل من بين شقوقِ المبنى المتداعي، فاعتدل في ذعرٍ وهو يتلفت حوله، وتعجب عندما رأى الجسد الراقد الناحية الأخرى، قبل أن يتذكر كل شيء مرة واحدة.

تأكد قاسم من وجود خنجره بحزامه، وحمل حقيبته القماشية، وقرر أن يغادر المبنى، ولكنه بعد بضعةِ خطواتٍ نظر من وراءِ كتفه ناحية جسد سيا النائم بشفقة، ثم اقترب منه ليقول وهو يهزه:

– استيقظ يا هذا!

اعتدل سيا من رقدته ونظر ناحية قاسم وهو يتذكر كل ما حدث بدوره ثم قال له:

– ما الأمر؟

فقال قاسم وهو يمد له يده ليساعده على الوقوف:

– ألم تقل إنك ذاهب إلى ملاذ؟

اومأ سيا برأسه ومد يده إلى يدِ قاسم الممدودةِ إليه ليبدئا رحلة العودةِ إلى ملاذ.

غريب من أبيدوس

سار قاسمُ بصحبةِ سيا عائدين إلى ملاذ، فكانت الأرضُ زلقةً للغاية، وقد تجمعت مياهُ الأمطارِ في بركٍ طينيةٍ صغيرة، مما تطلب المزيدَ من الحرصِ أثناء سيرهما كيلا ينزلقا أو يسقطا في واحدة من تلك البرك. أخذ قاسم نفسًا عميقًا من الهواءِ المشبعِ برائحة المطرِ، وقال لسيا:

– أتمنى أن نجد طريقةً للوصول إلى الضفةِ الأخرى، فعبور النيل بعد عاصفةٍ كتلك لن يكون أمرًا هينًا.

ظهر القلق على وجهه فقال له قاسم:

– لا تقلق، فهؤلاء القوم على ضفافِ النيل يعرفون ما يفعلون.

ثم انحنى على الأرضِ ليمسك بقطعة خردة معدنية صغيرة ملطخة بالطين، فغسلها في بركة مياه قريبة وجففها في ملابسه ثم رفعها ليتأملها في ضوء الشمس بعين مفتوحة وأخرى مغلقة، قبل أن يضعها في حقيبته، فقال له سيا:

– ماذا تفعل؟

فابتسم قاسم وقال:

– مجرد هواية غريبة لديّ.

لم يتبادلا كلمةً أخرى حتى وصلا إلى ضفةِ النيل المُغطاة بطبقة كثيفة من الضبابِ، وقد حل صمتًا كئيبًا على المكان، فأطلق قاسم صفيرًا

طويلًا من بين شفتيه، حتى ظهر شخصٌ صامتٌ ملثمٌ، وسار بدون أن يتبادل كلمة واحدة مع قاسم أو سيا، فتبعه كليهما حتى وصل إلى ضفة النيل ورأى سيا قاربًا يتأرجح على سطح مياه النيل، فقفز الرجلُ في القاربِ وتبعه قاسم وسيا، ثم أخرج قاسم من حقيبته عملةً نحاسيةً أعطاها للرجلِ الذي نظر ناحية سيا، فأخرج قاسم عملةً أخرى، وبعدها بدأ القارب في التحرك حتى وصل إلى الضفة الأخرى.

ما أن خطا سيا بقدميه على الضفةِ الأخرى حتى رأى أسوارَ ملاذ الشاهقةَ في الأفقِ، وأبراجها المرتفعة، وتبع قاسم وهما يقتربان من بوابةِ المدينة، وتحفز الأخير لمضايقات الصيادين، وسمع أحدهم يقول له:

– مهلًا أيها النباش!

نظر إليه قاسم بغيظ، فقال الصياد وهو يشير إلى الوشوم على وجه سيا:

– من هذا المسخ بصحبتك؟

فقال له قاسم بغضب:

– لا شان لك بهذا!

فقال الصياد وهو يقترب:

– كيف تجرؤ ...

وفجأة قاطع كلامه صوتٌ مرتفعٌ، كانت إحدى العربات المحملة بالصخور تحاول المرور من البوابة فتحطمت إحدى العجلات الخشبية وسقطت حمولتها على الأرض، فسارع الصيادون ناحية العربة لتدارك الامر، حينها جذب قاسم يد سيا وقطعا شوارع ملاذ حتى وصلا إلى مقاطعة الرماد، وسارا بين شوارعها الضيقة وبيوتها الطينية حتى

وصلا إلى بيت قاسم. رأتهما عمته الواقفة فوق سطح البيت وهي تنتظره في خوف وقلق بالغين، فما أن لمحته حتى نزلت درجات السلم بأقصى سرعة يسمح بها جسدها البدين، وهي تصيح:

– لقد عاد قاسم يا أبي!

أسرع الجد لفتح الباب، وتعجب حينما رأى الشابَ الغريبَ الذي يسيرُ بصحبة قاسم، ثم قال لحفيده:

– لقد أصبتنا بالهلعِ عليك، خشينا أن تكون قد هلكت في العاصفة.

دعا قاسمُ سيا للدخول وأغلقا الباب ثم جلس يَقُصُ ما حدث مُنذ خرج من ملاذ حتى داهمته العاصفة، وقص سيا بدوره القصةَ التي قصها على قاسم، فأحس الجدُ والعمةُ بالشفقةِ ناحية الفتى الغريب، وقال الجد:

– لا تحزن يا بني، تستطيع البقاء هنا كما تشاء.

قال سيا:

– كنت أفكر في العثورِ على خانٍ أو شيءٍ من هذا القبيل.

فقال له قاسم:

– لا داعي لذلك، يمكنك مشاركتي الغرفة حتى يعود زوج عمتي ونسأله عن القوافلِ المتجهة إلى الجنوب.

فقالت لهما العمة:

– لا شكَ أنكما جائعين بعد ما مررتما به، سأعد لكما الغداء.

فقال قاسم بحماس:

– سـأجهز لـك سريـرًا في غرفتـي التـي ستشـاركني إياهـا حتـى تنتهـي عمتـي مـن اعـدادِ الغـداءِ.

وهكـذا تبعـه سـيا مرتقيًـا درجـات السـلمِ الطينيـةِ حتـى وصـلا إلى غرفتـه في الطابـقِ الثـاني، وبمجـرد أن خطـا سـيَا في الغرفـة لاحـظَ وجـودَ أكـوامِ الكتـبِ فقـال متعجبًـا:

– هل تقرأ؟

أومـأ قاسـم برأسـه مجيبًـا فلمـس سـيا الكتـبَ بحـذر، ثـم نظـر ناحيـة الغطـاء القـماشي الـذي يخفـي مـا تحتـه، وقـال:

– وما هذا؟

فقال له قاسم:

– هذا ... لا شيء، أخبرتك أنها مجرد هواية غريبة لدي.

فقال له سيا:

– ينتابني الفضولُ لمعرفة المزيد، إن كان هذا لا يزعجك.

ظهر التردُدُ على وجهِ قاسم، ثم تنهدَ وهو يقول:

– حسنًا لا بأس.

وأزاح الغطـاء لـيُري سـيا تلـك الكومـةِ المعقـدة مـن الـتروسِ والتوصيـلات والقطـعِ الحديديـة، فقـال لـه سـيا بفضـول:

– ما هذا؟

فقال قاسم شارحًا:

- إنها بقايا التكنولوجيا البشرية القديمة، لقد استطاعوا جعل الأشياءَ المعدنيةَ تتحركُ من تلقاءِ نفسها، وأطلقوا عليها اسم المُحركات، وهذا ما أحاول فعله عن طريق البحث عن أثار تلك الاختراعات القديمة ودراسة ما في الكتب، الأمر شاقٌ للغاية فالكثير من هذه الأشياء دُمرت إثر الحرب العظمى والفوضى التي تلتها، ولكنني أظن أنني أحرز تقدمًا جيدًا في الأمر.

فقال له سيا:

- يقول كهنةُ أبيدوس أن تلك الآلاتِ هي السبب في الكارثةِ التي حَلّت بالبشرية، لقد جعلتهم تلك الآلات ينقلبون على بعضهم البعض، لذا يُعد كل أثر من آثار تلك الآلاتِ هو أمرٌ ملعونٌ محرمٌ، وقد تم جمع كل أثر لها في مكان ضخم يسمى بمقبرةِ الماضي يشرف على حراسته كهنةُ المعبد وخدمتهُم لكيلا يقتربُ منه إنسانٌ، ويقولون إن من يحاول الاقتراب منها سيحل عليه لعنة الآلهة.

بدا سيا مقتنعًا بما يقوله، ولم يرغب قاسمُ في مُجادلته، فأعادَ الغطاءَ القماشيّ فوق آلته، ثم بدأ يجهزُ سريرًا آخرًا لسيا في الغرفة، والأخير صامت وهو يقلب في صفحات أحد الكتب باهتمام حتى سمع صوت قاسم يقول له:

- لقد أصبح سريرُك جاهزًا.

ثم تناهى إلى سمعهما نداء العمة، فأسرعا لتناول الغداء، وقال لها قاسم مبتهجًا عندما اشتم رائحة السمك المشوي:

- من أين حصلتي على تلك الأسماك؟

فقالت العمة:

– بمقايضة بعض الجبنِ والبيضِ مع أحد الصيادين.

تجمعوا حول مائدةِ الطعامِ والسمك الساخن يتصاعدُ منه البُخارُ، فأخذ الجد يتلو صلواته، ورفع سيا كفيه إلى وجهه وهو يتمتم بكلمات خافتة، أما قاسم فقد مد يده إلى واحدة من السمكات، ثم سحبها بسرعة بعدما لسعتهُ حرارتها وهو يقول:

– ساخنة!

نظرت إليه عمته معاتبة، فانتظر حتى انتهى جده وسيا من صلواتهما، ثم أقبلوا جميعًا على الطعام بشهيةٍ كبيرة. فجأة سمعوا صوت طرقاتٍ شديدةٍ على الباب، فنظروا إلى بعضهم البعض بخوفٍ وتوترٍ، ثم أشار الجدُ لقاسم أن يفتح الباب، فوجد أمامه مجموعةً من الصيادين على أحصنتهم، يتوسطهم صيادٌ ضخمُ الجثةِ، وقبل أن يتكلم قاسم جاء صوتُ جده من وراءه يقول بلهجة حادة:

– ما الأمر أيها الصياد؟

لم يَعتد الصيادون أن يخاطب أحدًا قائدهم بمثل تلك اللهجة الحادة، فتوترت أيديهم على مقابض سيوفهم ولكن الصياد الضخم رفع يده لتهدئتهم ثم نظر إلى جد قاسم وقال:

– تناهى إلى عِلمنا أن لديكم غريبٌ من خارج ملاذ، ونرغب في أن يحضر معنا.

نظر قاسم بطرف عينه ناحية سيا الذي ظل جالسًا في موضعه بدون أن يبدو عليه التأثر بما سمعه، فقال الجد بحزم:

– هذا الفتى هو ضيفي وسيبقى عندي كما يشاء.

قطب الصياد حاجبيه، وتوقع منه قاسم رد فعل عنيف، ولدهشته قال:

– ستتغاضى عن الأمرِ هذه المرة إكرامًا لابنك.

لم يفهم قاسم الجملة، ونظر إلى جده بتساؤل، ولكن الجد ظل صامتًا مقطبًا جبينه وهو يشاهد الصيادين يستديرون بأحصنتهم ويبتعدون عن البيت، ثم توقف الصياد الضخم فجأة وقال بدون أن ينظر ناحية الجد:

– وستزيد إتاوتك التي تدفعها طالما بقي ضيفك عندك.

وضغط على كلمة ضيفك في نبرةٍ ساخرة وهو يبتعد بصحبة الصيادين.

التفت قاسم لجده متسائلًا بدهشة:

– ما الذي يقصده بـ «إكراماً لابنك»؟

لم يجب الجد على سؤال قاسم، فيما قال سيا بنبرة آسفة:

– يبدو أني قد تسببت لكم في بعض المتاعب.

فربت الجد على كتفه وقال:

– لا بأس يا بني، لقد اعتدنا على تلك المتاعب، لا تحمل همًا.

عادوا إلى تناول الطعام مرةً أخرى، ولكن الأجواء المرحة اختفت وحل محلها سحابةٌ من الوجوم، وكان أكثرهم وجومًا هو قاسم الذي أخذ يلوك الخبز بلا شهية حقيقية وهو يفكر في كلام جده مع الصياد، نادرًا ما يتحدث جده عن أبيه، فما سر قول الصياد إكرامًا لابنك! لم يستطع الاستمرار في تناول الطعام فنفض كفيه وصعد إلى غرفته،

وتناول أحد الكتب من الكومة الموضوعة بجوار سريره وحاول أن يندمج في القراءة ولكنه أحس بعينيه تجريان على الكلمات والأسطر بدون أن يصل شيئًا منها إلى عقله، وبعد ذلك لحق به سيا واستلقى على السرير الذي أعده له قاسم وهو يحييه فرد قاسم التحية بدوره، ثم وضع الكتاب جانبًا واستلقى على جنبه داعيًا النوم إلى مقلتيه، وهاجمت الأفكار مجددًا عقله بشراسة حتى لبى النوم أخيرًا النداء، وأسدل عباءته على جسد قاسم المتعب، الذي أخذ يحلم أحلامًا مضطربةً عن ملاذ والصيادين وأبيه الذي لم يره في حياته.

***

استيقظ قاسمُ في الصباحِ التالي على صِياح الديكِ مع أشعةِ الشمسِ الأولى، وأيقظَ سيا النائمُ معه بالغرفة، والذي ساعده في الاعتناءِ بمزرعةِ العمة قبل أن يتناولا الإفطار سويًا ويخرجا إلى شوارع مقاطعة الرماد. تعالت همسات الناس وهم يشاهدون سيا بوشومهِ الغريبة يسير بصُحبة قاسم، إلا أنهم سرعان ما عادوا للانشغال بأمُورهم الخاصة. خارج المدينة شاهد سيا قاسمَ وهو ينبشُ بين الأطلالِ القديمةِ باحثًا عن أشياءٍ غريبة، ثم ساعده في حملها عائدين إلى ملاذ، وتوجها ناحية مقاطعة الحدادين، وابتهج أويس لمرأى قاسم وقال له بتعجب:

– لم أعتد أن أرى معك صحبة يا رجل!

قص عليه قاسم باختصار قصة سيا، فرحب به أويس، وبعد أن فحص ما يحمله قاسم وانتقى منه ما يحتاجه في عمله قال له قاسم:

– هل انتهيت مما طلبت منك؟

فقال أويس:

– ليس بعد، لم أستطع الحصول على مغناطيس، هذا الشيء نادر وباهظ حقًا.

تبدى الحزن على وجه قاسم، فقال له أويس:

– لا تقلق سأعثرُ على واحدٍ بالتأكيد.

وبعدها عاد قاسم إلى البيت بصحبة سيا، وفي الأيام التالية اعتادا على الخروج سويًا للتنبش أو التجول في ملاذ، واعتاد الناسُ على رؤيتهما سويًا ولم يعد الأمرُ يُثير فضولهم كالسابق. أما سيا فكان فضوليًا للغاية تجاه ملاذ، يسأل قاسم عن كل شيء، ويصحبه إلى بوابات ملاذ المختلفة ونقاطها الهامة، مكان واحد فقط لم يتحدث قاسم عنه خلال تجوالهما، محاط بأسوار مرتفعة بداخلها قلعة صخرية كبيرة، كل ما قاله قاسم له هو أن هذا هو الحِصْنُ مقرُ الصيادين، القوى الحاكمة في ملاذ، لا يدخله إلا الصيادين وبعض أصحاب الأعمال الكبيرة في ملاذ؛ فلم يعد سيا لسؤاله عنه بعد ذلك.

ذات يومٍ ذهب قاسم بصحبة سيا إلى مقاطعةِ الحدادين لمقابلة صديقه أويس، الذي تهللت أساريرُه لرؤيتهُما، فقال لقاسم وهو يتوجه إلى أحد أركان الورشة:

– لقد انتهيت من عمل الشيء الذي طلبته مني.

ثم عاد حاملًا كتلة غريبة من المعدن والأسلاك وضعها على المنضدة الخشبية أمام قاسم وهو يقول:

– لقد واجهت صعوبةً في الحصولِ على المغناطيس ولكني وجدت واحدًا مع أحد عُمّال المناجم الغربية وصنعت لك منه قُطّبين متقابلين كما أوّضحتَ بالورقة.

ثم أضاف مبتهجًا:

– لحُسن الحظِ أن هذا العامل لم يُدرك قيمته فلم يطلب كثيرًا ثمنًا له.

نقده قاسم المبلغ المطلوب، بينما تأمل سيا الشكل العجب المُكَوّن من حجرٍ أسودٍ محاط بأسلاك نحاسية ملتفة حوله وبعض الأشياء المعدنية الأخرى التي لم يفهم طبيعتها ولكنه ذكرته بالآلة الغريبة في غرفة قاسم. حمل قاسمُ الجهاز وعاد إلى البيتِ بصحبة سيا، وأخذ الأخير يشاهده وهو يفك بعض المسامير في آلته الغريبة ويضع كُتلة المعدن ـ التي صنعها له أويس ـ في قلب الآلة ويعيد ربط المسامير مجددًا. انهمك قاسم في ضبط وتعديل بعض التروس في الآلة ثم قال بفرحة:

– أعتقد أنه قد أصبح جاهزًا أخيرًا.

لم يستطع سيا الصبر على فضوله أكثر من هذا فقال:

– وما هو هذا الشيء بالضبط؟

فقال قاسم بفخر:

– إنه كاشف المعادن.

فقال سيا بحيرة:

– ماذا تعني؟

فقال له قاسم وهو يحمل الجهاز:

– الأفضل أن تَرى بنفسك.

ثم هبطا درجاتِ السُلّم متوجهان ناحية البابِ الخلفي وخرجا إلى المزرعةِ، فحفر قاسم حفرةً صغيرة في الأرض الطينية ووضع بداخلها قطعةً معدنية، وقام بدفنها جيدًا ثم توجه ناحية كاشف المعادن، وأخذ

يُدير الزنبرك في مؤخرته عدة دورات، ثم تركه فسمع سيا صوت شيء يدور داخل الجهاز وشراراتٌ زرقاء تبرقُ حول الكاشفِ فتراجع في خوف، ثم أحس بالذهول وهو يشاهد الآلة تتحرك على الأرضِ قبل أن تقترب من الحفرة، وتبدأ في حفرها بما يشبه المثقاب لتلتصق القطعة المعدنية بالآلة التي ما لبِثت أن توقفت عن العمل، فاقترب قاسم منها والتقط القطعة المعدنية وهو يشعر بالفخر، فقال له سيا بخوف:

– ما هذا؟

فقال له قاسم:

– هذه أحد أعاجيب الحضارة القديمة وتسمى كَهْرَباء، لقد اعتادوا على توليدها على نطاقٍ واسعٍ واستخدموها في كل شيء، أما ما صنعته أنا فهو أمرٌ بسيطٌ يُنتج كميةً صغيرةً من الكهرباء عن طريق حركة السلك حول قطبي المغناطيس الثابت وبعض الأشياء البسيطة.

فقال سيا وهم لم يفق من ذهوله بعد:

– بسيطة! لقد جعلت المعدنَ يتحرك من تلقاءِ نفسه يا رجل، هذا الأمر يشبه ألاعيب السحرة.

فضحك قاسم وقال:

– لا سِحر في الأمر، بل هي قوةُ الآلاتِ القديمة.

فقال سيا وهو يتأمل كاشف المعادن:

– هل هذه هي قوة الآلات القديمة حقًا؟

فقال له قاسم:

– أجل.

فالتمعت عينا سيا وهو يقول:

- هذا يُغير كل شيء!

فقال له قاسم بحيرة:

- ماذا تعني؟

فهز سيا رأسه وقال:

- لا شيء.

فقال قاسم وهو يحمل الجهاز عائدًا إلى غرفته:

- سيُساعدني هذا الكاشف على البحثِ عن المزيدِ من المعادنِ أسفل أطلال القاهرة القديمة.

فابتسم سيا وقال:

- أتمنى ذلك.

وفي عقله تتشكل خطةٌ جديدة.

obeikan.com

خربة الجن

بعيدًا عن مدينة ملاذ، ووسط أطلالِ القاهرة القديمة، سار قاسم وسيا سويًا، مبتعدين عن أعين قاطني ضِفاف النيل الفضولية، حتى قال قاسم وهو يتلفت حوله:

– لقد ابتعدنا بما يكفي.

ثم أخرج آلته الصغيرة «كاشف المعادن» من حقيبته القماشية، وأدار الزُنبرك عدة دورات كي يمد الآلة بالطاقةِ اللازمة للعمل، وفجأة شعر بألمٍ شديد في مؤخرة رأسه وهو يسقط على الأرض، فنظر بذهول إلى سيا الذي أمسك بحجر كبير تلطخ بالدماء، ثم بعد ذلك غاب عن الوعي.

أفاق قاسم بعد مدةٍ لا يعرف مداها وهو يشعر بألمٍ شديدٍ في رأسه، فحاول أن يرفع يده ليتحسس موضعَ الألمِ ولكنه اكتشف في تلك اللحظة أن يداه مقيدتان بأحبالٍ متينة، ففتح عينيه ليجد نفسه على صَهْوَة حصان وأمامه سيا يقود الحصان والذي قال بعدما أحس بحركته:

– إذنْ فقد استيقظت أخيرًا.

فقال قاسم بغضب:

– ما الذي فعلتَه أيها الوغد؟!

فضحك سيا بسخرية وقال:

– ستعرف كل شيء قريبًا.

حاول قاسم أن يُخمن إلى أين يتجه سيا، كانا قد ابتعدا كثيرًا عن أطلال القاهرة وأصبحا يسيران في الصحراء، وفجأة أدرك قاسم إلى أين يسير سيا، إنه يتوجه ناحية خربة الجن! ففي الأفقِ، ووسط رمالِ الصحراء، تجلّى أمام عينيّ قاسم المعابدُ الصخريةُ العتيقة والتماثيلُ الضخمة النصف متهدمة، فامتلأ قلبه بالخوفِ والمهابةِ، واندهش حينما رأى سيا يدلف بحصانه إلى أحد المباني الصخرية بلا أدنى تردد، قاطعًا الممرات الصخرية.

رأى قاسم نقوشًا غريبة مرسومة على الجدران، وتساءل إن كان هذا المكان ينتمي للجن حقًا! لم تكن تلك الأماكن إلا خرَائِب كما يصفها الناس، ولكنها تحمل بين طياتها سِحرًا غريبًا، يختلف عن المباني التي تنتمي إلى حقبة ما قبل الكارثة. أحس قاسم بتيار هواءٍ بارد يتسلل من الفتحات والشقوق المتعددة في الجدران الصخرية، وارتعش جسده من البردِ والخوفِ معًا، وسيا يحمله إلى مصيره المجهول!

انتهى مسيرهما في بهوٍ واسع، مضاء بالمشاعل، تتناثر به العديد من التماثيل لبشرٍ برؤوس حيوانات وطيور، تبدو أفضل حالًا من التماثيل بالخارج، لعل الجدران الصخرية حمتها من أثر الرياح المُحمّلة بالرمال طوال السنوات السابقة، إلا أن ضوء المشاعل جعلها تلقي ظلالًا مخيفة انقبض لها قلبُ قاسم. لم يكن البهو فارغًا بل كان هناك مجموعة من الرجالِ سمر البشرة صلع الرؤوس، أحنوا رؤوسهم باحترام عندما رأوا سيا الذي رفع يده اليمنى وهو يقول بنبرةٍ صارمة تتناقض مع النبرةِ الهادئة التي اعتاد قاسم عليها منه:

– سلامًا عليكم يا جنود أبيدوس المخلصين.

فرد الرجال السمر بصوتٍ واحد تردد في البهو الصخري:

– سلامًا عليك أيها الأمير.

وبعد ذلك قفز من فوق الحصان، وقال لرجاله:

– احملوه إلى غرفة الأضحية.

فصاح قاسم في غضب وهم يمسكون به:

– أتركوني عليكم اللَّعْنَة، أبعدوا أيديكم القذرة عني.

إلا أن الرجال حملوه وتوجهوا ناحية إحدى الغرف وألقوه بداخلها قبل أن يغلقوا البابَ ليتركوه في الظلام، أحس قاسمُ باليأسِ وهو مقيد في تلك الغرفة المظلمة العطنة، وظَل في موضعه وقتًا طويلًا، أو هكذا بدا له؛ فالبقاء في هذا الظلام يجعل الانسان يفقد الإحساسَ الحقيقيّ بالوقتِ، قبل أن يسمع صوتَ خطوات شخصٍ يقتربَ ويفتح بابَ الغرفة، وعلى ضوءِ المشاعلِ المتسلل إلى الغرفة لمح قاسمُ وجهَ سيا فبَصَق على الأرض وقال بغضب:

– لم أتخيل أن يَصْدر كل هذا منك، أن يكون كل ما تفعله مجرد خدعة كبيرة.

قال سيا بنبراتٍ باردة:

– لم يكن الأمر كله خدعة، لقد فاجأتني العاصفةُ حقًا، وفرقتني عن جنودي، والتقيت بك، الفارق هو أنني لم أكن قادم مع قافلة كما أخبرتك، بل أنا في مهمةٍ عظيمة.

قال له قاسم بغضب:

– من أنت حقًا، وما الذي تُريده؟

فقال سيا بفخر:

– أنـا الأمـير سـيا، الابـن السـابع للملـك نخـاو ملـك أبيـدوس، وحامل الدمـاء الإلهيـة النبيلة.

فقال له قاسم وهو يعقد حاجبيه:

– لا أرى أي نُبل فيما فعلته معي!

فتنهد سيا ثم قال:

– الأمـر كـما تـرى هـو أن لي عـدة أخـوة يفوقونـني عُمـرًا، ولا يوجـد أمامـي فُرصـة لاعتـلاء عـرش أبيـدوس، ولكني فكـرت أنني لـو قمت باحتـلال مـلاذ بفيلقـي الملكـي؛ فـإن هذا سـيزيد مـن حُظْوتي عنـد أبي، ممـا يُؤهلنـي بعـد ذلـك لاعتـلاء عـرش أبيـدوس وربـما عـرش مـصر كلهـا! وقـد قدمـت إلى الشـمال بصحبـة جنـودي لمعرفـة كل مداخـل ومخـارج مـلاذ ودراسـة نقـاط قوتهـا وضعفهـا، وقـد وفـرت أنـت لي حمايـة ممتـازة مـن أعـين الصيادين، وغطـاءً يسـمح لي بالتحـرك بحرية، للبحـث عـن نقـاط الضعف التـي تهيـئ لي إحـكام قبضتي على الشـمال.

نظـر قاسـم ناحيتـه بمزيـجٍ مـن الغضـب والاحتقـار، فأكمـل سـيا متجاهـلًا النظـرة المرتسـمة عـلى وجهـه:

– ولكـن بفضلـك خطـرت عـلى ذهنـي فكـرةٌ أفضـل، باسـتخدام بقايـا الآلات الموجـودة في مقـبرة المـاضي، أسـتطيع بنـاء شيء لا مثيـل لـه، لـن يسـتطيع أحـدٌ مـن الشـمالِ أو الجنـوبِ أن يقـف أمـام وجهـي، وسـتركع مـصر كلهـا تحـت قدمـيّ!

حاول قاسم أن يتخلص من قيوده بلا جدوى وهو يقول:

– وما ذنبي أنا في كل ذلك؟

فقال له سيا بابتسامة ساخرة:

– أنت أفضل من يعرف سر تلك الآلات، وبمساعدتك سأقوم ببناء جيشي الجديد.

فصاح قاسم:

– أنت مجنون، هذا لن يحدث أبدًا!

اتسعت ابتسامة سيا الساخرة وهو يقول:

– سنرى، ما أن يجتمع كل رجالي حتى نُغادر إلى أبيدوس، وستفعل حينها كل ما آمرك به!

ثم ابتعد ليغرق مجددًا في الظلمة وضحكاته الساخرة يتردد صداها بين جدرانِ المعبدِ الصخرية.

***

أخذ الجد يقطع بهو البيت جيئًا وذهابًا في قلق، فقالت له ابنته:

– ما الأمر يا أبي.

فقال الجد وهو ينظر من أحد نوافذ البيت تجاه الغرب:

– لقد شارفت الشمس على الغروب ولم يَعُد قاسم بعد.

فقال ابنته محاولة طمأنته:

– لا تقلق، لعله في طريقه للبيت الآن.

فقال لها الجد:

– أتمنى ذلك يا بنيتي، أتمنى!

إلا أن الشمس غابت بدون أن يعود قاسم، فاشتعلت نيران القلق في قلبِ الجد ولم يسْتطع النوم، وظلت ابنته بجواره تحاول مواساته، رُغم احساسها بالخوفِ على قاسم بدورها، ربما حاولت بكلماتها أن تُطَمْئن نفسها أيضًا، فقالت:

– لقد تأخر منذ بضعة أيام ولم يعد إلا في الصباحِ التالي.

فتنهد الجد وقال لها:

– لقد أعاقتهُ العاصفةَ عن العودةِ، أما اليوم فلا شيء غير مُعتاد قد يعيقه عن العودة!

بدت الحيرة على وجه ابنته ثم قالت:

– هو ليس وحده هذه المرة، بل معه سيا.

عقد الجد حاجبيه وقال:

– نعم، معه سيا!

لم تفهم ابنته ما يَرمي إليه الجد؛ ولكنها ظلت بجواره في بهو البيتِ ينظران ناحية باب البيتِ آملان أن يطرقه قاسم في أي لحظة، حتى سادَ الظلامُ التام، وأُغْلِقَت أبوابُ المدينة، وخيم السكون على مقاطعةِ الرماد، في الوقت الذي أُضيئت فيه الحانات والمقاطعات الأكثر ثراءً، غير عابئين بهموم المقاطعات الأقل منهم حالًا. مَضَت دقائقُ الليلِ المظلم القاسي ببطءٍ على الجد والعمة، حتى بدأ ضوء الفجر يتسلَل من النافذة دون أن يغمض لهما جفنًا، ولم يسْتطع الجدُ الانتظار أكثر من ذلك، فقال لها:

– سأخرج للبحث عنه.

أمسكت بيده في هلعٍ وهي تقول:

– تبحث عنه أين؟ نحن لا نعرف مكانه.

فقال الجد:

– لا أطيق صبرًا أكثر من ذلك.

ثم عقد حاجبيه في تفكير وقال:

– هناك شخص واحد يمكنني أن ألجأ له في هذا الموقف.

قالت ابنته بشك:

– هل تعني راكان؟

فقال الجد باستنكار:

– لا! بالطبع ليس هو!

فقالت ابنته بحيرة:

– من تعني إذن؟

فقال الجد بحزم:

– أعني مُهاب.

فقالت ابنته بخوف:

– لو عرف راكان بالأمر ...

قاطعها الجد غاضبًا:

– تبًا لراكان، ما يُهمني الآن هو حفيدي!

obeikan.com

لم تستطع ابنته اعتراض طريقه وهو يغادر البيت، تاركًا مقاطعة الرماد وراءه، عابرًا بوابة ملاذ وسط نظرات الصيادين المُتعجبة، إلا أنهم أفسحوا له الطريق باحترام، ثم عبر الجد النيل إلى الضفةِ المقابلة، وسار عبر الطريق القديم الذي مازال يذكره، قاطعًا الأطلال والخرائب، حتى وصل إلى طريق شبه ممهد وهو يسير بأنفاس متقطعة والطريق يرتفع به لأعلى قاطعًا تلًا صخريًا، وفجأة ظهر له شابٌ صغيرٌ يطلي وجهُهُ بالأصباغِ الحمراءِ يقول له محذرًا وهو يُمسك برُمحٍ طويلٍ:

– توقف! لا تقترب أكثر من ذلك!

فقال له الجد بحزم دون أن يخاف من الرُمح المُشهَر أمامه:

– أريد رؤية مُهاب.

تأمله الفتى بحذر دون أن يرخي رُمحه وقال:

– من أنت؟ وماذا تريد من زعيمنا؟

فقال له الجد:

– قل له «الشَّيْخُ محمود أبو عَمّار يرغب في الحديث إليك».

ارتجفت يد الشاب الممسكة بالرمح واتسعت عيناه ذهولًا وقال له:

– هل تعني عمار ...

اختنقت الكلمات في حلقه فأومأ الجد برأسه ايجابًا وقال:

– نعم هو.

أرخى الفتى رُمحه على الفور وقال:

– أعذرني يا جداه لم أعرفك، سأصحبك إلى الزعيم مُهاب على الفور.

قضى قاسمُ الليل متكومًا على نفسِه في ركنِ الغرفة، والألم في رأسه يزحفُ إلى بقية جسده، والبرد الشديد المُتسلل إليه من شقوق الحجرة يُجمد أوصاله، وقد فقد كل أملٍ في الخلاصِ من تلك الورطة، وأخذ يفكر في مصيره المظلم الذي ينتظره في الجنوب.

ظل قاسم في هذه الحالة ما بين اليقظةِ والنعاسِ، لا يعرف كم مر عليه من وقت وهو مُلْقى في تلك الغرفة المُظلمة العَطِنَة، وفجأة انتبه على صوت خطوات أقدام على الأرض الصخرية تقترب من الغرفة، وانتظر أن يفتح الباب ليطل عليه وجه سيا كالمعتاد، ولكنه سمع صوت صياحًا مكتومًا يعقبه صوت جسد يسقط على الأرض أمام البوابة، وبعد لحظات فُتح الباب ليرى رجلًا يرتسم على وجهه أصباغًا حمراء، ذكرته بما رآه مرتسمًا على وجه الفتاة يوم العاصفة، وعلى الفور قام الرجل بتمزيق قيود قاسم الذي قال له في دهشة:

– من أنت؟

فرفع الصياد سبابته أمام شفتيه وقال بصوتٍ هامس:

– اسمي مُهاب وأنا هنا لإنقاذك، هذا هو كُل ما تحتاج لمعرفته الآن.

كان الاسم مألوف لقاسم، فهو يتردد بين الأطلال وعبر الخرائب، ولا يوجد من يجهله في ملاذ، مُهاب زعيم المنبوذين، صاحب العداء الشهير مع الصيادين، ولكن ما الذي يفعله هنا؟ ارتسمت تلك الأسئلة على ملامح قاسم، ولكن مهاب لم يُمهله، بل غادر الغرفة وتبعه قاسم الذي لم يعد له خيار، وأمام الغرفة رأى جسد أحد الجنوبيين مُلقى على الأرض، ولم يدر هل هو ميت أم فاقد الوعي، ولكنه لم يهتم.

بعد أن قطعوا عِدّة ممرات صخرية وصلوا مجددًا إلى البهو، فتناهى إلى مسامعهم صوتُ حديث الجنوبيين الخشن مع بعضهم البعض، فسار

كُلًا من قاسم ومهاب بحذر متسللين من عمودٍ إلى أخر كيلا يلفتوا الانتباه. أثناء دورانهم في إحدى الممراتِ الصخرية تفاجئوا بجنوبي ضخم الجثة ظهر أمامهم فجأة، وعلى الفورِ استل سيفَهُ من غِمْده وصاح مستنجدًا برفاقه وهو يهوى بسيفه على مُهاب وقاسم، فاستل مُهاب سيفه بدوره وتلقى به ضربة الجنوبي الضخم، وبحركة سريعة حادة انتزع السيف من يد الضخم ليسقط بعيدًا قبل أن يغرس سيفه في قلبه حتى مقبضه، ثم انتزعه وهو يَقْطُر دمًا وقاسم ينظر في فزع.

أطلق مُهاب من شفتيه صَفيرًا عاليًا، فلم يفهم قاسم لما يفعل ذلك هل يرغب في أن يدل رجال سيا على موضعهم؟ ولكن الإجابة جاءته على هيئة أقدام كثيرة تركُض على الأرضِ الصخرية، قبل أن يظهر مجموعة من الرجال ذوي الأصباغ الحمراء، في نفس لحظة وصول جنود سيا إليهم، فكان وجود المنبوذين مفاجأةً كبيرة لهم، والتحمت السيوف ببعضها البعض، وسقطت الجثث على الأرض. ظهر تفوق المنبوذين واضحًا، فقد صرع مُهاب وحده بسيفه العديد من الجنوبيين، وتركهم على الأرض مُضَرَّجين في دمائهم وانتصب واقفًا بين الجثث والدماء تقطر من سيفه، فبدا مهيبًا في ضوءِ المشاعلِ المتراقصة على الجدران.

قال له قاسم:

– لا أفهم، إن كان معك هذا العدد من الرجالِ لما أتيت وَحْدَك في البداية؟

ابتسم مُهاب وهو يمسح الدماء من نَصْلِ سيفه بطرفِ ملابسه ويعيده إلى غمده قبل أن يقول:

– أردتُ أن أطمئن أنك بخير، فقد خشيتُ أن يُصيبك أذى حالة الهجوم على المكان.

بحث مهاب ورجاله عن سيا في كل مكان في المَعْبَد إلا أنه اختفى بلا أدنى أثر، فأمر مهاب رجاله بتفتيش المكان حول المعبد للبحث عن أي أثر له، فقال قاسم:

– هناك شيء أخذه مني هذا الوغد يجب أن أعثر عليه!

وهكذا عاد الرجال يفتشون المَعْبَد ثانيةً بحثًا عن كاشف المعادن الخاص بقاسم الذي وصف شكله للرجال رُغم عدم فهمهم لفائدته، وبعد بحثٍ طويل لم يجدوا أثرًا للكاشف، فاستسلم قاسم وتبع مُهاب خارجين من المَعْبَدِ وسارا على الرمالِ الساخنةِ في قلبِ الظهيرة، فأدرك قاسم أنه قد قضى اليومُ كله محتجزًا داخل هذا المَعْبَد الصخري.

وراء إحدى الكُثْبان الرملية كانت أَحْصِنَةٌ المنبوذين بانتظارهم، فامتطى مُهاب أحدهم ومد يده يجذب قاسم ليمتطي الحِصَان بدوره، وسارع الحِصَانُ في عدوه على الرمال يطوي الأرض طيًا، متجهًا ناحية أطلال القاهرة.

ظلال الماضي

سارت الأَحْصِنَةُ قاطعة الرمال، عائدة باتجاه أطلالِ القاهرةِ القديمة، ولكن الموكب أخذ مسارًا لم يعتده قاسم، فاجتاحته حيرة شديدة، وفاضَت روحُه بالأسئلة، وأحس مُهاب بما يعتمل في صدره فقال له:

– ستفهم كل شيء حالما نصل إلى مُعسكرنا.

لاذ قاسمُ بالصمتِ طيلة الرحلة حتى أوشكت الشمس على الغروب، واصبغت السماء بلونِ الشَفَقِ الأحمر، فقال متسائلًا:

– هل مازال أمامنا الكثير؟

أشار مُهاب بإصبعه ناحية الأفق وهو يقول:

– وصلنا.

مد قاسمُ نظرهُ ليرى ما الذي يُشير إليه مُهاب فوجد واديًا مُنخفضًا تَسُوده الخضرة، وقد نبتت حوله عِدّة أشجار، والطيور تحلق في السماء، وبمنتصف الوادي توجد بُحَيْرة مياه زرقاء أثار مرآها القُشَعْرِيرَةَ في جسده، وكانت ألوانُ السماءِ الحمراء وأشعةُ الشمسِ الأخيرة تنعكسُ عليها ببريقٍ جميلٍ، فأحس أن هذا الوادي هو أجمل شيء يراه في حياته، لقد كانت واحةٌ في قلبِ الصحراءِ.

بعدما اقترب الخَيْلُ من الوادي، لاحظ قاسمُ من وراءِ الأشجارِ وجود سورًا حجريًا ليس بارتفاع أسوار ملاذ أو الحصن، يتخلله

عـدة أبـراج يقـف عليهـا رجـالٌ متحفـزون كالصقـور وهـم يُمسـكون بأقواسـهم، ووراء ظهـر كل واحـد منهـم كنانـة بهـا عـدة أسـهم.

رفـع مُهـاب يـدهُ إلى فَمِـه وأطلـق عـدة صافـرات مُتقطعـة وهـو يقـتربُ مـن السـورِ، فرفـع الرجـلُ الواقـفُ فـوق الـبرجِ يـده وردد صافرةً مشـابهة، فُتِـحَ عـلى إثْرهـا مِصْرَاعـيّ باب خشـبي كبـير فِي مُنتصـف السـور، وبمجرد عبورهمـا مـن البـاب قفـز مُهـاب مـن عـلى حِصَانـه وهـو يقول لقاسـم:

– مرحبًا بك في مُعَسْكَر المَنْبوذين.

قفز قاسم من على الحصان بدوره، ثم سمع صوتًا مألوفًا يصيح:

– قاسم!

اسـتدار قاسـم ناحيـة الصـوتِ ليجـد جـدهُ يقـتربُ منـه مُسْـتندًا عـلى كَتِـف أحدهـم، فسـارع قاسـم ناحيتـه وهـو يقـول:

– جدي! ما الذي تفعله هُنا؟

ولكن جده التفت إلى مُهاب وقال بنبراتٍ ممتنة:

– شكرًا لك على انقاذ حفيدي.

قال قاسم بنبرةٍ تسلل إليها بعض الغضب رغمًا عنه:

– ما الذي يجري حولي؟ أنا لا أفهم شيئًا!

تنهـدَ الجـدُ بحـرارة كأنـه يُحـاول إزاحـة عـبء ثقيل عـن صدره ثـم قال:

– إنها حِكايةٌ قديمة.

فقال قاسم بتصميم:

– أريد أن أعرف كُلّ شيء!

ظهرت الحيرة على وجه الجد فقال له مُهاب:

– قاسم الآن كبيرٌ بما يكفي، ومن حقه أن يعرف الحقيقة.

زفر الجد بحرارة وهو يقول:

– لا أعرف من أين أبدأ!

فقال له مُهاب:

– دعني أتولى هذا الأمر.

سار ثلاثتهم سويًا ناحية إحدى الخيام المُتواجِدة داخل المُعَسْكَر، وكانت مفروشة ببعض الأفرشة البسيطة، وبعض الوسائد الصغيرة للاتكاء، وما أن جلس ثلاثتهم حتى قال مُهاب لقاسم:

– أول شيء تحتاج أن تعرفه هو أن أباك كان صيادًا.

نزلت الكلمة على قاسم كالصَّاعِقَة فهذا آخر شيء كان يُمكن أن يتوقعه فقال لمُهاب مصدومًا:

– أبي؟ صَيّاد؟ مُستَحيل!

أشار مُهاب ناحية الجد وأكمل:

– لقد حَرِصَ جدك على إبقاء الأمر سرًا عنك وقَدْ احترمتُ رغبته، ولكنك الآن كبرت ومن حقك أن تعرف كل شيء، نعم كان أبوك صيادًا ولم يكن صيادًا عاديًا قطُّ.

نظر مُهاب ناحية الجد ليرى رَدَّة فعله، ولكنه وجده مُطرقًا إلى الأرض، سارحًا في ذِكرى بعيدة، فعاد بعينيه إلى مُهاب يستحثه على الاكمال. أخذ مُهاب نفسًا عميقًا وهو يستجمع أفكاره ثم أكمل حديثه:

- ظهر الصَّيَّادون مُنذ زمنٍ بعيد، في البداية كانوا جماعات صغيرة متفرقة هدفهم مُساعدة الناسِ على اجتياز آثار الكارثةِ، وحمايتهم، وصيد الحيوانات، وتوفير المُؤَن وغيرها، قبل أن يتحولوا بمرور الوقت لسيفٍ مُسلَّطٍ على رِقاب الناسِ، يجمعون منهم الإتَاوَة، ويفرضون عليهم العمل في المَزارِعِ والمَحاجِرِ والمناجِمِ وغيرها، ولكني في صغري كنت منبهرًا بالصيادين، والتحقت بهم وأنا شابًا صغيرًا لم أتجاوز الثامنة عشر ورغم ذلك كان يتبعني مجموعة أخرى من الصيادين، وكان أبيك في مثل عُمري تقريبًا، عندما التقيت به، في البداية كان صِدامًا وصِراعًا، ولكني أُعجبت بشهامته ونُبْل أخلاقه، فدعوته للانضمام إلينا، ولأصدقك القول لم أتوقع أن يقبل بذلك، ولكنه قبل، وبمرور الوقت أصبحت أنا أتبعه كأنه هو القائد، وتبعه الصيادين الاخرين، بعدها بدأ أبيك في احياء المبادئ القديمة للصيادين، لكي يكونوا عونًا للناس لا سَيفًا مُسلطًا على رِقابهم، فتحول إلى رَمْزٍ ومَثَلٍ أعلى عند البُسطاء والصيادين على حدٍ سواء، وبدأ الكثير من الصيادين ينضمون إلينا، خوفًا من قوة أبيك ومن يتبعه من الصيادين، أو إعجابًا بمبادئه وقُدرته على الحديث والإقناع.

ثم صمت قليلًا ليستعيد تلك الذِّكرى البعيدة، وعندها لمح قاسم الدُمُوع تتَرَقْرَقَ في عينا جده المُطرِق، وتُفلت رُغمًا عنه لتسيل على خدّيه، فيما راح مُهاب يُكمل كأنه يَرْوِي مشهدًا يراه أمامه، أو كأنه قد عاد بروحه إلى هذا الزمنِ البعيد:

- بعد بِضْع سنوات حدثَ الصِدامُ الأول بيننا وبين راكان، كنا أنا وأبيك في ذلك الوقت قد تجاوزنا العشرين عامًا بقليل ولكن أبيك رُغم صِغَر سِنه كان قويًا حقًا، كما كان دَمِث الخلق واسِع الأفق فدانت له جماعات الصيادين المُتفرقة بالطاعة، ولم يتبق إلا

راكان، وكان وقتها يتزعم مجموعة قوية من الصيادين، ويكبُرنا في السنِ بعشرةِ سنواتٍ على الأقل، ولما رأى راكان أنه لا يستطيع الوقوف أمام عمار وَحْدَهُ، استسلم أخيرًا وانضم لجماعتنا، ولم يَعُد هناك أحدٌ من الصيادين خارج الجماعة، وجلس عمار بعدها على عَرْشِ ملاذ، ولكن أبيك بذكائه وحِنْكَته لم تَفُتْه قوة راكان وأتباعه، ولا خطرهما على وحدة الصيادين، فجعل راكان نائبه لاستمالته واستمالة أتباعه وأوصاني سِرًا بمراقبته جيدًا. بعدما اسْتَتِبّت الأمور قرر عمار أن يتزوج، كما تزوجت أنا حينها في نَفْسِ الوقتِ تقريبًا، وتبدّى لنا حينها أن الحياة قد أخذت مسارًا هادئًا، وبعد أقل من عام أنجبتك أمك، إلا أن المسكينة ماتت أثناء ولادتك، فحزن أبيك لذلك حُزنًا كبيرًا، ولم يَعُد كما كان من قبل، وبدأ راكان يستغل هذا الضعف المفاجئ الذي حل بعمار لكي يستعيد قوته القديمة، وأحس عمار بما يُحاك ضده، فأمرني حينها أن أوصلك إلى جدك ليتولى رعايتك، وأخبرني إن حدث له شيئًا أن أكون أنا على عَرْشِ ملاذ مِن بعده.

عند تلك النقطة لم يتمالك الجد نفسه، وتحوّل بُكاءه إلى نَشيج ونَحيب، ومُهاب نفسه جاهدَ الدموعَ التي تحاول الفرار من عيّنيه وهو يقول:

– بعدها بفترة أصاب عمار مرضٌ غريبٌ، جعله يتقيأ دمًا، وشككنا أن هناك من دَسَّ له السُّمّ، ولم يُمهل القدر عمار فاختطفه من بيننا، وأدركت أن راكان هو من كان وراء ذلك العمل الدنيء، فجمعت رجالي لمواجهته، ولكن راكان أدار خيوط لعبته بمهارة، فقد جَمَع العديدَ من الصيادين إلى صفه، ورجاله القدامى المستعدين لبَذْل دِمائهم من أجله، والآخرين الذين أطمعهم بالأموالِ والهدايا، أو الذين استمالهم بتأليبهم على عمار مستغلًا فترة حُزنه وضَعفه. سُرعان ما أدركت أنني ومن معي قِلّة، ولم نستطع مواجهة راكان

فانسحبنا خارج ملاذ، وسُرعان ما أعْلَن راكان أننا منبوذين منها، وطالب برأسِ من يقترب من ملاذ منا، ولكننا نفخر بهذا اللقب ولا نخجل منه، فهو إشارة على أننا لم نرض عن حكم راكان وعِصَابَته.

ثم زَفَر بحرارةٍ وقال:

- أثناءُ زعامة راكان تغيرتَ أهداف الصيادين مرةً أخرى، فعادوا إلى فَرْضِ الأموال على الناسِ نَظير حمايتهم وأصبحوا يستعلون عليهم كالسابق، ولكنه لم يستطع الاقتراب منك أو من جدك لكيلا يؤكد الشكوك التي أثرتها حوله بان له يد في موت عمار، فاكتفى بجعل جدك يعيش في ذلك الحي الفقير المسمى بحي الرماد، حيث لا يعرف أحدًا علاقته بعمار، كما حرص جدك على إخفاء حقيقة نسبك لكيلا تتعرض للمُضايقات ممن حولك، والبقية تاريخ كما تعرف.

قال قاسم بغضب شديد:

- هذا اللَّعِينُ سأقتله!

احتضنه جده وقال وهو ما يزال يبكي:

- لهذا أبْقيتَ كل هذا عنك سرًا، لكيلا أفقدك كما فقدتُ عمار من قبل!

ثم نظر إلى مهاب وقال:

- وما كنت لتعرف لو لم أضطر إلى اللجوء لمُهاب للبحث عنك بعدما اختفيت، فلا أعرف أحدًا أستطيع اللجوء إليه في هذا الموقف غيره.

فقال مُهاب محاولًا تغيير دفة الحديث بعدما رأى تأثر الجد:

– وهـذا يأخذنـا إلى هـذا المـكان الغريـب الـذي عثـرتُ عليـكَ فيـه بعدما تقصّيـت أثـرك مـع رجالي، مـن هـؤلاء الجنوبيـين ومـا الـذي يُريدونه؟

قـصّ عليهـم قاسـم مـا سـمعه مـن سـيا في المعبـد، فارتسـمت أمـارات القلـق عـلى مَحْيـا مُهـاب، وقـال:

– هذا الأمرُ خَطِيرٌ للغاية.

لم يكـترث قاسـم كثـيرًا بشـأن مـلاذ، ولكنـه كان يشـعُر بمزيـج مـن الغضـبِ لخيانـة صديقـه سـيا لـه، والرغبـة في الانتقـام مـن راكان الـذي قتـل والـده، والضيـق مـن جـده الـذي خبْـأ كل هـذا عنـه طيلـة حياتـه، والشَـفَقة عليـه في الوقـتِ ذاتـه، وظهـر هـذا الـصراع بـين مشـاعر قاسـم جليًـا عـلى قسـماته، فربـت مهـاب عـلى كتفـه وقـال لـه:

– لا تبتأس يا فتى، سيكون كل شيءٍ بخير.

ثم نظر ناحية الشمس المُوشِكَة على الغروب وقال لهما:

– أرى أن تبيتـا الليـل في مُعسـكرنا، عـلى أن تعـودا إلى مـلاذ في الصبـاحِ الباكـر.

لم يعـترض قاسـم أو جـده عـلى العَـرْضِ، فـلا مجـال للخـروج في قلـبِ الأطـلالِ في الليـلِ المـليء بالأخطـار، وفجـأة دلفـت فتـاةٌ إلى الخيمـةِ وهـي تقـول:

– مرحبًا يا أبي، أين كُنتَ طيلة اليوم؟

ثـم تـورد خداهـا خجـلًا عندمـا لاحظـت وجـود ضيـوفٍ في خيمـةِ أبيهـا، أمـا قاسـم فقـد لاحـظَ في دهشـة أنهـا الفتـاة التـي التقـى بهـا ليلـة العاصفـة أثنـاء مُطاردتـه للغزالـة، ويبـدو أنهـا تذكرتـه أيضًـا لأنهـا نظـرت ناحيتـه بنفـس نظرتـه إليهـا، فقـال قاسـم:

– أنتِ؟

فقال له مهاب بدهشة:

– هل تعرف جهاد ابنتي؟

اومأ قاسم برأسه وقال:

– نعم فأنا أدين لها بحياتي.

أما جهاد فقالت مدارية حرجها:

– من هذان يا أبي؟

فأشار الأب إلى جد قاسم وقال:

– هـذا هـو الشّـيخ محمـود والـد عـمار زعيـم الصيادين السـابق، وهـذا قاسـم ابـن عـمار.

نظـرت الفتـاة إليهـما بمزيـج مـن الرهبـة والانبهـار، أمـا مُهـاب فقـد أمـر رجالـه بإعْـداد العشـاءِ لضيوفـه، ولم يَمْـضِ وقـتٌ طويـلٌ حتـى جلس قاسـم وجـده مـع مُهـاب ورجالـه في خيمـةٍ واسـعةٍ مضـاءة بالمشـاعل، وقـد تراصـت أمامهـم أطبـاقُ الطعـامِ السـاخنةُ التـي يتصاعـدُ منهـا البخـارُ. أخـذ مُهـاب يـمازح رجالـه ويضَحـك معهـم، فلـم يشـعر قاسـم أنـه زعيمهـم، بـل أقـرب إلى صديـق لهـم جميعًـا، وبعـد ذلـك التقـت عيناه بجهـاد فأشـاحت بنظرهـا عنـه في خَجَـل، وابتسـم قاسـم خجـلًا بـدوره لما أدرك أنهـا كانـت تنظـر إليـه، فكانـت النُقطـةُ المبهجـة الوحيـدة في تلـك العتمـة السـوداء المُقبضـة المُحيطـة بـه.

أبيدوس

قطعت قافلةٌ من الخيلِ الصحراءَ والخرائبَ والأطلالَ متجهةٌ ناحية الجنوبِ، لم يكن سوى الأمير سيا مع من تبقى من جنوده، عائدين إلى أبيدوس، وسيا يُمسك في يده كاشف المعادن الذي صنعه قاسم كأنه يُمسك كنزًا ثمينًا، لم يفارقه لحظة واحدة، رغم جهل رجاله معناه وقيمته، إلا أنه كان يشعر بداخله أن تلك الأداة الصغيرة هي مِفتاح نصره المرتقب. رُغم احساسه بالغضبِ الشديدِ لفشل خطته في جلبِ قاسم إلى الجنوب، إلا أن هذا الجهاز بحوزته، مع ما قرأهُ في كُتُب قاسم، سيجعله قادرًا على فهم آلية عمل هذه الأشياء. قطعت القافلةُ مسيرة عدة أيام في الطرقِ القاحلة، ومن آنٍ لآخر يتبدى لهم بعض القُرى الصغيرة، أو القَبَائلُ البَدائيَّة، التي تنظر ناحيتهم بمزيجٍ من الفضولِ والحذرِ والتحفز، وعند حلول المساء يلجؤون إلى واحدةٍ من تلك الحانات المُعدّة للمسافرين في المناطق الأبعد عن الخرائب والأطلال، أو يقيمون استراحة لقافلتهم في الخلاء ويقضي مجموعة من الرجال ليلتهم يتناوبون السهر للحِراسةِ، خَشْيَةَ هجوم بعض الوحوش، أو قُطّاع الطرق، أو غيْرها من الأخطار.

في فجر اليومِ الثامن وصلت قافلةُ الخيلِ إلى مشارفِ مدينةِ أبيدوس، وظهرت أسّوارها الشاهِقة في الأُفُقِ، وابتهج الجنود لرؤية مدينتهم مجددًا، وأدرك ساكني القُرى المحيطة بأسّوار المدينة هوية راكبي الأحصنة، فأفسحوا بخَشْيَةٍ واحْتِرامٍ لموكبِ الأمير سيا، فيما

كان عَقْلُ الأمير غارقًا في أفكاره الخاصة، ما يطمح إليه يتعارض مع كل معتقدات قومه، هل سيقبل الكهنة بفتح مَقْبَرَة الماضي مجددًا، يا لها من فكرة مجنونة! ولكنه كان موقن أن سِرَّ قوته يكمن بين أطلال تلك المَقْبَرَة، يجب عليه فتحها بأي ثمن!

سارت الخيل على طريقٍ مُعَبَّدٍ بالصخور، يتجه ناحية بوابة أبيدوس، التي يقف أمامها تمثالًا للرب بتاح ـ الذي نادى على الدنيا للوجود حَسْبما يقولُ الكهنةُ ـ ويداه قابضتان على عنخ، وآس ودجد رموز الحياة والقوة والاتزان، وعلى يمينه تمثال امرأة برأسِ لَبُؤَة وعلى رأسها قُرْص الشمسِ وثُعْبَان كُوبرا تُمَثِّل الربة سخمت إلهة الحرب، وبينهما تمثال طفل على رأسه زهرة لوتس رمز نفرتوم ابن بتاح وسخمت، وهؤلاء هم الثالوث المعبود في مدينة أبيدوس، بحسب معتقدات مُلُوكها وكَهَنَتها.

ألقت التماثيل بظلالها على حُرّاس أبيدوس سُمْرِ البَشْرة صُلْعِ الرؤوس وهم يُمسكون في أيديهم برِماح معدنيّة تلتمع نِصالها في ضوءِ شمسِ الصباح، وقد انقبضت أيديهم على رِماحهم في تحفز وهم يُراقبون الموكبَ المقبل، ولما أدركوا أنه الأمير سيا بوُشومه المميزة، ركعوا على أقدامهم احتراما للأمير، ثم عبرت الخيل بوّابة المدينة الصخرية، وطرقها المُعَبَّدة بالحِجارة، متوجهين ناحية قصرِ المَلِك نخاو. على عَكْسِ مدينة ملاذ التي يمتزج فيها الماضي بالحاضر، والمباني الحديثة بأطلال المباني القديمة، والأسلحة البدائية مع بقايا الآلات الميكانيكية، ففي أبيدوس لم يكن هناك أثرٌ لعصرِ ما قبل الكارثة، لا أطلال ولا آلات ولا بقايا تكنولوجيا، فكل المباني مبنية من الصخر، وكل العربات لا تتحرك إلا بالخيل، وملابس الناس بسيطة باللون الأبيض، يغطي أغلبهم وَسَطَه فقط ويترك جِذْعه عاريًا، عدا النساء، وفي كل ركنٍ من أركانِ المدينة، يقف تمثالًا من تماثيلِ الثالوثِ

المعبود في أبيدوس، أو رمزًا من رموزهم الدينية، كأنهم نسوا الماضي أو تناسوه، لا يرون إلا ما يراه مَلِكهم وكَهَنَتُهُم.

بعد وصول الموكب إلى القصر الملكي، توجه الجنود بخيولهم إلى ثكناتهم، وترك سيا حصانه لأحد الخدم ليأخذه إلى الإسطَبل الملحق بالقَصْرِ، ثم توجه ناحية جَناحِه الخاص، والخَدَم يُفسحون له الطريق باحترام، فأمر أحدهم أن يُعِدّ له حمامه لكي يغسل أثر سفر الأيام السابقة، وحَرِصَ طيلة الوقتِ على إبقاء كاشف المعادن بالقرب منه في أمان. أخذ يفكر أثناء استحمامه كيف يقنع أبيه بفتح مقبرة الماضي؟ وماذا عن الكهنة؟ نثر أفكاره عن رأسه مع المياه الساخنة، وارتدى ملابسه الملكية التي تخلى عنها طيلة الرحلة السابقة، وتوجه ناحية البلاط، حيث يوجد عرش أبيه، حاملًا معه كاشف المعادن، وهو يُرَتّب أفكاره، وما أن دلف إلى البلاط حتى حَلَّ الصَمْتُ على الملك ووزيره وكهنته والأمراء السِتّة، إخْوَته الكبار، وهم ينظرون ناحية أخيهم، لم يُدْرِك أحدٌ وجهته عندما خرج من أبيدوس، لذا أثار خبر عودته اهتمام الجميع، فأخذ سيا نفسًا عميقًا، وقال مُحَدْثًا الملك نخاو الجالس على عَرْشٍ ذَهَبيّ مرتفع بعدة درجات فوق مستوى الجالسين:

– سلامًا عليك يا أبي.

فقال له أبيه:

– سلامًا عليك يا بُنَيّ.

تعلقت العيون بسيا وبما يحمله في يده، فقال متحدثًا:

– أعرف أن الجميع يرغب في معرفة أين كنت، حسنًا، لقد خرجت في رحلة لاستكشاف الشمال!

تعالت الهَمْهَمات بين الجالسين، فيما عقد الملك نخاو حاجبيه، فأكمل سيا متجاهلًا الهمسات من حوله وقال:

- كل من درس المخطوطات المقدسة، وكل من يحمل جزءً من مَعْرِفة ما قبل الكارثة، يعرف جيدًا أن أجدادنا حكموا تلك البلاد من شمالها إلى جنوبها، وهذا هو ما أطْمَح له!

ثم أكمل مسرعًا:

- أعني أن تجلس أنت يا أبي على عَرْشِ الجنوبِ والشمالِ، وتدين لك البلادُ كلها بالطاعةِ والولاء.

رفع الملك نخاو يده ليصمت الهمس وقال:

- ولكن بيننا وبين الشمال عهود سلام وتجارة!

فقال سيا:

- ولكنهم لا يؤمنون ببتاح أو سخمت أو نفرتوم، فأي عَهْد يتبقى لهؤلاء المارقين!

نظر الملك ناحية الكهنة، ثم نظر ناحية ابنه وقال:

- ولو كان الأمر كذلك، لا يوجد لدينا ما يكفي من القوة لمُحاربة الشمال، فهؤلاء الصيّادين مقاتلين مهرة لا يُشق لهم غبار!

أخرج سيا من بين طِيات ثوبه كاشفَ المعادنِ وهو يقول:

- لهذا قمت برحلتي، وقد أحضرت معي هذا.

عادت الهمهمات تسود مجددًا بين الكهنة، ثم قال كبيرهم مرن ـ بتاح:

- هذا يشبه تلك الأشياء النجسة التي استعملها البشر قبل الكارثة!

أما الملك نخاو فقال في فضول:

– وما هذا الشيء بالضبط؟

وضع سيا قِطعة مَعدنية على الأرضِ وتراجع بِضعة أقدام، وأدار زُنبرك كاشف المعادن وتركه على الأرض، فبدأ المُحرك الصغير يدور بقوةٍ والشرارات الزرقاء تتطاير منه، فتراجع الجميع في خوفٍ، فيما سار كاشف المعادن ناحية القِطعة المعدنية لتلتصق بالمِغناطيس ويتوقف عن العمل، فقال الملك نخاو بصوت مضطرب:

– أي سِحرٌ هذا؟

فقال سيا:

– هذا ليس سِحرًا، بل هي قوة الآلة، باستخدام الآلات نستطيع بناء جيشٌ لا يُقهر، فقط لو أعطيتني الإذن بفتح مقبرة الماضي!

وقعت كلمات سيا الأخيرة على الجميع كالصاعقة، وصاح الملك نخاو:

– كيف تجرؤ ...؟

اختنقت الكلمات في حلقه، فقال كبير الكهنة مرن ـ بتاح:

– هذا أمر مرفوض تمامًا!

وقال الأخ الأكبر، وولي العهد، الأمير سخموي بنبرة ساخرة:

– يبدو أن عقله قد تلوّث بهرطقات الشماليين!

احْتَقَن وجه سيا في غضب، فقد توقع الرفض، ولكنه لم يتوقع هذا الهجوم الحاد، والسُخْرِيَة منه على الملأ، فحمل كاشف المعادن واستدار ليُغادر البلاط، فقال له الملك:

– انتظر أيها الفتى! إذا سمعت حديثًا آخرًا عن فتح مقبرة الماضي فلن أتهاون معك، هل فهمت؟

فقال سيا بنبرات جامدة:

– فهمت!

ثم اندفع مغادرًا البلاط كالعاصفة، تاركًا الجميع حوله في حيرة، وغضب، واضطراب!

***

قضى سيا الأيام التالية مُنفردًا بنفسه في غرفته، مفكرًا فيما يتحتم عليه فعله، لحسن حظه أن كاشف المعادن ما يزال في حوزته، إلا أنه بدون الكُتُب لن يستطيع الوصول إلى هدفه، عليه فتح مقبرة الماضي بأي ثمن! ما يزال لديه مجموعة من الرجال يُدينون له بالولاء والطاعةِ العمياء، ولكنه يحتاج إلى شيءٍ آخر، إلى رَجُل في قلبِ السُّلطة الدينية، الكاهن الأكبر من الصعب استمالته، وفجأة تذكر سيا أمرًا ما، الكاهن المسمى توت ـ آنوب، هذا الكاهن معروف بكراهيته للشماليين، ورفضه المُعْلَن للتبادل التجاري معهم، وكم أوقعه هذا في خلافات مع الكاهن الأكبر مرن ـ بتاح، فقال سيا لنفسه:

– هذا هو من أحتاجه!

وعلى الفور سار على حِصَانه مُتجهًا ناحية مَعْبَدِ بتاح في قلبِ مدينة أبيدوس، والشمس على مَشَارف الغُروب، فخَلَت الشوارع من المارةِ إلا من عددٍ قليل ينحني أمام سيا في احترام حين يراه، حتى وصل سيا إلى المَعْبد المُضاء بالمشاعل والشُموع، ومَبْخرتان كبيرتان موضوعتان أمام باب المعبد تنشران عَبَقْهُما في الشوارع المحيطة بالمَعْبد، وبجانب المَبْخَرتين يوجد تِمثالين لقِطّتين مصريّتين

تقفان بتحفز أمام المَعْبد رمزًا لعناية الآلهة بالمعبد وحمايتها له. تَرَجّل سيا عن حِصَانه ودلف إلى المَعْبد ماشيًا، احتراما لهيبة المكان، وتقرب من تِمْثال بتاح في البهوّ العظيم، وأحرق بعض البَخُور، ومسح رأسه بالدُّهْن، وترك بعض النقود المعدنية في صندوق النُذُورُ، وبعد أن أتم طُقُوسه وصَلَواته، بحث بعينيّه عن الكَاهِن توت ـ آنوب، حتى عثر عليه خارجًا من إحدى الغرف المُلحقة بالمعبد، فأسرع ناحيته والكَهَنة وخَدَم المعبد يُفسحون له الطريق باحترام، وتفاجئ توت ـ آنوب بصوت سيا يقوله له:

– سلامًا عليك أيها الكاهن.

فجفل وهو ينظر ناحيته، قبل أن يتبين له شخصية سيا فقال باحترام:

– سلامًا عليك أيها الأمير.

فقال له سيا:

– أرغب في الحديث معك قليلًا.

أشار له الكاهن بيده كي يدلف إلى الغُرفة التي خرج منها للتو، فلحق به سيا وأغلق الكاهن الباب وراءه، ثم قال:

– ما الأمر يا سمو الأمير؟

فتنهد سيا وقال:

– لا شك أنك سَمِعْت بما دار بيني وبين الملك بعد عودتي من الشمال؟

فقال الكاهن وهو ما يزال يشعر بالحيرة:

– أجل سمعت.

فأكمل سيا:

- الشمال هو عدونا المشترك، ولكن أبي والكاهن الأكبر لا يَرَوْن ذلك، فهما يخشيان الصِدام مع الشمال، ولكن لدي الطريقة التي تجعل الشمال يركع تحت أقدامنا!

أثار كلامه حماسة الكاهن توت ـ آنوب، فقال له:

- وما هي تلك الطريقة؟

أراه سيا كاشف المعادن وحدثه عن خِطّته التي تتضمن فتح مقبرة الماضي، فاتسعت عينا توت ـ آنوب في فزع وقال:

- ولكن هذه المقبرة مَلْعونة، تلك الأدوات هي ما أوشكت على إنهاء العالم، كما أنه من يقترب منها ستحل عليه لعنة بتاح!

فقال له سيا محاولًا اقناعه:

- ولكن نحن لا نهدف إلا إلى خِدْمة الإله، وإدخال مصر كلها في عِبادته.

ثم أضاف بنبرة غامضة:

- كما أنني أفكر فيمن يستحق أن يكون الكاهن الأكبر بعدما أصبح أنا ملك مصر.

فاتسعت عينا توت ـ آنوب في فزع:

- هل تعني أنك ستزيح الملك نخاو من على عرشه! هذا ...

قاطعه سيا قائلًا:

- أبي والكاهن الأكبر لا يُدْرِكَان قيمة ما أرغب في فعله، يجب علينا أنا وأنت أن نفعلها، سأصبح انا الملك، وأنت الكاهن الأكبر، فقط عليك أن تساعدني على الوصول إلى ما بداخل مقبرة الماضي؟

فانهار الكاهن جالسًا، ثم قال بنبرة ضعيفة:

– وماذا عن إخْوتك؟

قال سيا بشراسة:

– لا أحد سيقدر على الوقوف في وجهي!

ثم ضم قبضته ناحية وجهه والتمعت عيناه وهو يكرر:

– لا أحد!

obeikan.com

في معسكر المنبوذين

بعد عَوّدَة قاسم إلى بيته مع جده، اكتشفا عَوّدَة زَوْج العمة من قافِلة الجنوب، وقد حَكَت له زوجته عن غياب قاسم، وخروج الجَدّ محمود للبحثِ عنه، وبعد عَوّدَة قاسم ومعرفة الأخبار الجديدة، أحس زوج العمة بالخوفِ مما قد يحدث، واقترح أن يخبروا راكان بما يُخطط له سيا، ولكن الجد فضل عدم الزج بأنفسهم في هذا الأمر والتورط مع الصيادين، أما قاسم فلم يُعلّق بل توجه إلى غُرفته وظل وحيدًا بها، لم يخرج حتى لتناول الغداء أو العشاء، فأحست عمته بالقلق عليه، إلا أن الجد كان يدري بما يَعْتمل في صدر حفيده، أن يَكْتَشِف ما حَدَث لأبيه، وكيف انقلب عليه راكان، وأن يعرف كل هذا بعد خِيانة سيا لثقته، وغدره به، كل هذا أكبر من أن يحتمله هذا الشاب الصغير، فطلب منهما أن يتركاه على راحته. في صباح اليوم التالي خرجَ قاسمُ من غرفته وتناول طعامَ الإفطارِ في صمتٍ، قبل أن يَخرجُ من البيتِ ويسير في شوارعِ ملاذ، مغادرًا بوابة المدينة. لم يكن لديه أي رغبة في التنْقيب هذا اليوم، فترك قدميّه تأخذانه حيثما تريدان، ولم يَشْعُر بنفسه إلا وهو يَعْبُر التلَّ المُطلَّ على الواحة، حيث يقع مُعسكر المنبوذين، ولمحه أحد الكشّافة، فاقترب منه ولما تعرف عليه رحب به، وسار قاسم معه باتجاه المعسكر، وابتسم مُهاب عندما رآه وقال:

– لم أتوقع عودتك بهذه السرعة.

فغَمْغَم قاسم:

– ولا أنا!

ثم سار بجواره قاطعين معسكر المنبوذين، وشاهد قاسم رجال مُهاب مُنهمكين في تدريباتهم المختلفة كالمُبارزة بالسيفِ ورَمْي الأسّهُم، إلا أنه بمجرد مرور مُهاب وقاسم يتوقفون عما يفعلونه للترحيب بهما، أما قاسم كان يبحثُ عن شخصٍ بعينه، وسرعان ما رآها تقطع المعسكر قادمة باتجاههما، كالشمسِ المُشْرقة، فصافحت قاسم وهي تُرحب به، ورَدَّ قاسمُ التحية. بعد ذلك اصطحبه مُهاب إلى خيمته، وصب له الشاي الساخن، فأخذ قاسم يَرْتَشِف بعض الرَشَفاتِ الصامتة، فقال له مُهاب:

– ماذا بك يا بني؟

فقال قاسم بكلمات باردة:

– أرغبُ في الانْتِقامِ من راكان!

رَبَتَ مُهاب على كتفه وقال:

– وأنا أرغب في ذلك أكثر منك، ولكن الآن علينا نفكر في الخطر المُشْترك الذي يُهدد ملاذ، فالأمر يشغلني مُنذ غادرت أنت وجدك المُعسكر.

قال قاسم بنبراتٍ غاضبة وقد ابيضت أصابعه وهي تعتصر الكوب الزُجاجيّ:

– فلتذهب ملاذ إلى الجحيم، لا أهتم بما قَدْ يحدث لها!

بدت إمارات الدهشة والصدمة على وجه مُهاب، ثم أطْرق رأسه وقال:

– أتفهم غضبك يا قاسم، ولكن ما كان عمار ليحب أن يَسْمع تِلك

الكَلِمات منك، فلم يفعل أبيك ما فعله إلا لكي تُصبح ملاذ ملاذًا حقًا، وكنت أتمنى أن تُكمل أنت مَسِيرته!

صمت قاسم ولم يُعَقِب، فاحترم مُهاب صمته، وظلا يرتشفان الشاي في صمت، حتى قطعت جهاد خَلْوَتهما وهي تقول لأبيها:

– ألن نذهب إلى الصيد؟

نظر أبيها ناحيتها وقال:

– أجل، بالطبع.

ثم التفت إلى قاسم وقال:

– ورُبما يَرغب قاسم في المجيء معنا.

نظرت جهاد ناحيته لتنتظر إجابته وقد التمعت عيناها، فقال قاسم:

– يُسعدني ذلك.

بعد ذلك استعد مُهاب وجهاد وستةٌ آخرين من الرجال للذهاب إلى الصيد، وبعدما وضع كل واحد منهم سيفه في غمده، وعلقت جهاد قوسًا وكنانة أسهم على ظهرها، مد مهاب يده لقاسم ممسكًا بسيف وقال:

– هل تُجيد استخدامه؟

استل قاسم خَنْجره ذو المِقْبَض العاجي من غِمْده وهو يقول:

– يكفيني هذا الرفيق.

فقال له مُهاب وهو يعيد السيفَ إلى غِمْده:

– يبدو أنه مصنوع بيد حدادٍ ماهر، لا بأس به، ولكنك تحتاج لإتقان القتال بالسيف.

بعد ذلك خرج الجميع من العسكر لبدء رحلة الصيد؛ لم يكن الصيد أمرًا جديدًا على قاسم، فطالما اعتاد على صَيْدِ الحيوانات الصغيرة التي يلقاها في طريقة أثناء نبشه بين الاطلال، ولكن الخروج للصيد مع مجموعة كبيرة كانت تَجْرِبة جديدة بالنسبة له، فأحسّ بالحماس وهو يتعاون مع البقية في الإيقاع بالحيوانات البَرِّيَّة وصيدها، وأبدى قاسم مهارة في استخدام خَنْجره، كما أبدت جهاد مهارة في استخدام القوس والأسْهُم، وبنهاية اليوم عادوا بعدد من الحيوانات لا بأس به، وكانت المرحلة التالية هي نزع الجلد عن اللحم وتقطيعه، وتنظيفه، ولكن قاسم لم يبق ليشاهد كل ذلك، فقد خَشي أن تغيب الشمس وهو خارج ملاذ، فودع مُهاب وجهاد والبقية وغادر المُعسكر متجهًا ناحية المدينة.

***

في اليوم التالي توجه قاسم أيضًا إلى مُعسكر المنبوذين، وأخبره مُهاب أنه سيتولى مهمة تدريبه على استخدام السيف، ولم يعارض قاسم هذه المرة، فألقى له مهاب بسيف وأمسك آخرًا في يده، وقال لقاسم:

– مُستعد لبدء تدريبك؟

فقال قاسم وهو يشهر سيفه أمام وجهه:

– أجل.

بمجرد أن أنتهى من نطق كلمته؛ عاجله مهاب بضربةٍ قوية صدها قاسم بسيفه وأحس بكيانه يرتج من ضربة مُهاب الذي قال له:

– قوتك الجسدية لا بأس بها، ولكن ردة فعلك بطيئة.

ثم تلتها ضربة أخرى حادة انتزعت السيف من يده لينغرس في

الرمـال، ونظـر قاسـم ناحيتـه بذهـول، ولكـن مُهـاب أشـار إلى السـيفِ وهـو يقـول لـه:

– لا وقت لتضيعه.

أحـس قاسـم أن الإمسـاك بالسـيف يتطلب دقـة ومهـاره تفـوق مهارته، وأحـس أنـه لـن يسـتطيع مجـاراة مُهـاب وبـدأ اليـأس يتسـلل إلى نفسـه، وفجـأة لاحـظ أن جهاد جالسـة على أحـد الكُثْبـان الرملية تراقـب التدريب، فأمسـك قاسـم بسـفيه مجـددًا، وعـاد لاسـتئناف تدريبه، بمـرور الوقـت بدأ يسـتطيع تخمـين موضـع ضربـة مهـاب بقـراءة حركـة جسـده، وتمكـن مـن صـدّ العديـد مـن الضربـات وتفاديها، فارتسـم الاعجـاب على وجـه مُهاب.

اعتـاد قاسـم بعـد ذلـك عـلى تكـرار رحلاتـه إلى معسـكر المنبوذيـن، ولاحـظ جـده التغـير الـذي حـدث لقاسـم، ولكنـه كان سـعيد لاختفـاء سـحابة الحـزن والكآبـة مـن عـلى وجـه قاسـم، أمـا قاسـم فقـد تمكـن مـن اتقـان إمسـاك السـيف، وتعلـم العديـد مـن تقنياتـه ومهاراتـه، حتـى أصبح سـيافًا لا يشـق لـه غبـار في فـترةٍ قصـيرة، ومحل إعجـاب جميع من بالمعسـكر.

حـل الشِـتَاء وبـدأ الثَّلـج يتسـاقط عـلى مـلاذ وعـلى أطـلالِ القاهـرة القديمـة، وقلّـت رحـلات قاسـم إلى مُعَسـكر المنبوذيـن، وقـضى معظـم وقتـه يجمـع الحطـب مـن أجـل مِدفـأة البيـت، فـلا يمكـن النجـاة في ليـل الشِـتَاء دون نـارٍ أو حطـبٍ، يقـول البعـض أن هـذا التغيـر حلَّ بعـد الكارثةِ القديمـة، وأن رؤيـة الثَّلـج كانـت شـيئًا غـير معتـاد في المـاضي، ولكـن مـن يـدري مـا الحقيقـة ومـا الأسـطورة بعـد كل تلـك السـنوات! هكـذا قـال قاسـم لنفسـه وهـو ينفـخ في يديـه ليدفـع فيهـا بعـض الـدفء أثنـاء جمـع الحطـب، قبـل أن يحمـل مـا جمعـه عائـدًا إلى البيـت، وقـضى بعـض الليـل بجـوار النـار يقـرأ كتابًـا كعادته، ولكنـه لم يقرأ كتابًـا علميًا، بل كانـت رواية، يقرأهـا قاسـم للمـرة المائـة ربـما، فهـي مـن الروايـات القليلـة التـي بقيـت

بعد الكارثة، فلم يهتم أحد بالحفاظ على الروايات كما اهتموا بالحفاظ على الكتب العلمية، لذا يعد العثور على واحدة أمرًا صعبًا للغاية.

توجه قاسم في اليوم التالي إلى مُعَسكر المنبوذين، وشاهد البُحَيْرة متجمدة في الواحة، والثّلج يُغطي كل شيء، أما بداخل المُعسكر فكان الحزن مُخيمًا على الجميع، ففي الشتاء تقل الفرائس، وتصعب عملية الصيد، رغم ذلك لم تتوقف عمليات الصيد رُغم خطورتها، فحين وصل قاسم للمعسكر كان الرجال يستعدون للخروج في رحلة صيد جديدة، فقرر قاسم أن يرافقهم، كانت رحلة الصيد الأولى له في الشتاء، فأعاره مُهاب معطفًا من الفِرَاءِ وقال له:

– ستحتاجه.

وكذلك تدثَّرَت جهاد بمعطفها، وصحبتهم رُغم اعتراض مُهاب، إلا أنها أصرت بعناد، فهز مُهاب كتفيه مُستسلمًا وقال:

– لا بأس.

وهكذا سار الرجال بأحذيتهم الثقيلة في الثلوج، تاركين خطًا طويلًا من الأثار ورائهم، بحثًا عن أثر لأي فريسة، وفجأة لمح أحد الرجال أثر حوافر على الأرض، فصاح في البقية، واقترب مُهاب من الأثر ليتفحصه ثم قال:

– يبدو أن هناك وعلًا بالجوار، سيكون هذا صَيد الموسم إن ظفرنا به.

ألقى كلامه بالحماس في قلب رجاله، وبدأ الجميع يتتبعون الآثار وسط الثلوج، وفجأة اختلطت بآثار الوعل آثارًا أخرى، فقال مُهاب:

– يبدو أن الوعل قد جذب صيادًا من نوعٍ آخر!

فقال له قاسم:

- ماذا تعني؟

أما جهاد فنظرت للأثار وقالت:

- ربما يستحسن بنا العودة الآن؟

فقال لها مُهاب وهو يستل سيفه:

- ليس بعد أن قطعنا كل هذا الطريق!

فقال له قاسم:

- ما هذه الاثار؟

فقال مُهاب وهو يتقدم بحذر:

- آثار فهدٍ صياد!

أحس قاسم بالخوفِ يتملك قلبه، فقد سمع كثيرًا عن هذا الحيوان المفترس، وإن لم يره بنفسه من قبل، أثارت فكرة أن يقابلهم هذا الوحش وجهًا لوجه القُشَعْرِيرَةُ في جسده، ولكنه لم يسمح لخوفه أن يطفو على ملامحه. بعد مَسِيرة بِضْعة دقائق ظهرت بُقع دماء على الثلج، فقال مُهاب:

- يبدو أن الفهد قد ظفر بفريستنا، يُستحسن بنا العودة الآن فقد ابتعدنا كثيرًا!

استدار الرجال بخيبة أمل ليعودوا أدراجهم، وكذلك فعل قاسم، وفجأة تناهى إلى مسامعهم صوت زَمْجَرَة، فالتفت الجميع ناحية الصوت، ليجدوا الفهد أمامهم وفمه مُلوث بالدِماء، ونظر قاسم ناحية هذا الوحش، ذو الجسد الرشيق، والفرو المنقط الجميل، والملامح القاسية والنظرات المتحفزة،، فتجمد جميع الرجال في موضعهم، ثم

رفع مُهاب يده اليسرى في إشارة لهم بالتزام الصمت، وهو يُمسك بسيفه في اليد اليُمنى، مُستعدًا لرد أي هجمة من هذا الفهد، ويبدو أن هذا الوحش قد أحس بغريزته الحيوانية أن جهاد هي أضعف الجمع، فقفز برشاقة ناحيتها وصرخت هي في فزع، وما أن رأى قاسم ذلك حتى استل سيفه بدون تفكير وقفز ناحية الفهد ليهوي عليه بسيفه، ولكن الفهد تفادى ضربته بقفزةٍ رشيقة، وضربه بمخالبه ضربةٍ قوية ليمزق معطفه ويصنع جرحًا عميقًا في صدره، فصرخ قاسم في ألم، ولم يقف مُهاب مكتوف الأيدي فاستل سيفه وانقض على الفهد للدفاع عن قاسم، وجميع من حولهما متجمدين في خوفٍ وذهول، ولكن جهاد انتزعت نفسها من ذهولها واستلت سهمًا من كنانتها ووجهت القوس ناحية الفهد إلا أنها خشيت أن تصيب أبيها أو قاسم فتجمدت أصابعها على السهم، أما الفهد فقد أحدث عِدّة جروح في جسديّ قاسم ومُهاب، كما تمكن الاثنان من إصابته بعِدّة جروح بسيفيهما، حتى استطاع مُهاب أن يطعنه طعنةً قويّة نفذت من جانبه إلى الجانبِ الآخر، واستغل قاسم لحظة ضعف الفهد المفاجأة فوجه ناحيته ضربةً حادة قطعت رأسه وأجهزت عليه، لتتهاوى جثة الفهد أرضًا، فركضت جهاد ناحيتهما لتطمأن عليهما، ولما رأت أنهما بخير التفتت لقاسم وقالت له:

– شكرًا لك، لقد أنقذت حياتي.

فابتسم قاسم من بين جروحه:

– واحدة بواحدة، صِرنا مُتعادلين.

ثم تآوه في ألم فصاح مُهاب في بقية الرجال أن يحملوا جثة الفهد ويسرعوا بالعودة إلى المُعَسكر.

مقبرة الماضي

سار رِجال سيا في أضواءِ الشفقِ الأولى بصحبة الكاهن توت ـ آنوب مُرتدين زي خِدمة المَعْبَد، مُتجهين ناحية مقبرة الماضي الواقِعة خارج مدينة أبيدوس، ويُشرف على حِراستها بعض الجنود المُمسكين بالرِماح ذات النصالِ اللامعة، وهم ينظرون بتحفز ناحيتهم، فلم يَكنْ من المُعتاد أن يقترب أحدًا من مقبرة الماضي، ولكن ما أن تبين للجنود شخصية توت ـ حتى أرخوا رِماحهم، وركعوا في احترام، فقال لهم الكاهن:

– بُوركتم يا جنود أبيدوس، يا أعْيُن بتاح الساهرة.

لم يكن لدى الجنود سُلْطة لمنع الكاهن توت ـ آنوب من دخول المقبرة رُغم فضولهم الشديد لمعرفة سبب ذلك، ولكن مُعتقداتهم تمنعهم من سؤال الكهنة، وهكذا دلف الكاهن بصحبة رجال سيا إلى المقبرة، وتلفت الرجال ـ الذين يرون المكان لأول مرة ـ حولهم بانبهار، كان هناك أكوام ضخمة من الآلات القديمة، والخردة، والعديد من الكتب المُتكوّمة بإهمال، كان المكان يستحق حقًا اسمه، فهو مقبرة لكل ما يتعلق بعصر ما قبل الكارثة؛ ما قبل الحرب العظمى التي جلبت الْوَبَالُ على البشر، لم يستطع الرجال دفع تلك الخواطر التي جالت بأذهانهم، لعل الكَهَنة مُحقون بإبقاء هذا المكان الملعون مغلقًا، ولكنهم بصحبة الكاهن توت ـ آنوب، ويُطيعون أوامر الأمير سيا حامِل الدِماءِ الملكيةِ الإلهية، فلا يملكون من أمْرَهم شيئًا. هكذا بدأ الرجال في تنفيذ مهمتهم عند أبعد نقطة عن آذان الحرس، وهي حفر

نفق في مقبرة الماضي، يأخذهم إلى موضع آخر خارج أبيدوس حدده الأمير سيا مُسبقًا، سيأخذ الأمر بِضْعَة أيام قبل أن يتم لهم مُرادهم، أما الحرس فبعد نوبة التبديل الأولى نسوا أمر الرجال الذين أتوا بصحبة الكاهن، أو ربما ظنوا أنهم غادروا بعد رحيلهم، في الوقت الذي واصل فيه رجال سيا الليلَ بالنهارِ لإكمال الحفر بأسرع وقت ممكن.

في الموقع الذي حدده سيا خارج أبيدوس بدأ مجموعةٌ أخرى من الرجال في العمل على إعداد الموقع، وفي غِضون بِضْعَة أيام بدأ الرِجال ينقلون الآلات والخردة والكُتُب من مقبرة الماضي إلى الموقع الجديد، فعكف سيا على قراءة الكُتُب باحثًا بين طِياتها عن مِفتاحًا لحل لُغْزِ حَرَكَة الآلة، كان هناك العديد من التروس والأذرع الميكانيكية، والقطع المعدنية التي لم يفهم سيا بعد طبيعتها، ولكنه عَكَف على دراستها بكل همة، مُسخرًا حياته لهذا الهدف. أما توت ـ آنوب فكان يتحرك في الظلال، يبث أفكار العداء ضِد الشمال في قلوب الكهنة، ويؤلب البعض على الكاهن الأكبر مرن ـ بتاح وسياسة الملك نخاو، ولم تَمُر تلك التحركات من أسْفَل أنف الكاهن الأكبر، فقد وصلت إليه الأخبار، كما وصلت إلى أعين الملك، ولكنهم كانوا عاجزين عن تتبع مصدرها، ولم يكن الشَك في الأمير سيا سببًا كافيًا، وهكذا مضت خُطّة الأمير بنجاحٍ كبيرٍ حتى هذه اللحظة.

***

أمسك سيا في يده بآلة غريبة بها عِدّة تُرُوس وفوهة معدنية، تم تغذيتها بقطع معدنية مُدببة، وبودرةٍ سوداء من ملحِ البارود، ثم قام بتصويب الفُوَّهَةَ بدقة تجاه حجرًا موضوعا على مَقربة منه، وعلى الفور صدر منها دَويًا مرتفعة والطلقة الصادرة منها تُفتت الصخرة، فابتسم سيا في فخر، فيما ارتجف رجاله في خوف، أي قوة تلك التي

يحملها الأمير سيا! أما هو فكان يفكر في أمرٍ آخر، الأسلحة وحدها لا تكفي، يحتاج لعمل مثل تلك المركبات المُدرّعة التي قرأ عنها، ولكنها تحتاج إلى نوعٍ خاصٍ من الطاقةِ التي تنتج عن الوقود المُحترق، ولم يعد لديهم وسائل لإنتاج الطاقة بكميات واسعة كما كانوا يفعلون في الماضي ، إلا أنه بحسب الكتب فإن القدماء استطاعوا توليد الطاقة من الخشب والقش عن طريق عمليات كيميائية مُعقدة، لينتجوا ما أسموه ميثانول، عن طريق حرق هذا الوقود يُمكنهم تحريك الآلات المختلفة، ولم يكن هدف سيا المركبات الصغيرة فقط، بل كان يطمح إلى صنع آلةٍ ضخمة تلقي بالخوفِ في قلبِ كل من يراها، يستطيع تحريكها بالطاقة، ويزودها بالأسلحة، ستكون أكبر آلة حرب ممكنة، وسيُطلق عليها اسم «رَبّة الحرب» نسبة إلى سخمت، ولن يستطيع أحد أن يُجابهه بعد ذلك، في الجنوب أو الشمال.

وهكذا أصبحت مَهَمّة رجال سيا الجديدة جمع الخشب والقش وتجهيزه بطريقة خاصة ليتم جَمْع الميثانول بحذر، وفي الوقت ذاته بدأ العمل على بناء ربة الحرب، كان سيا بنفسه يختار القطع المطلوبة، والتُرُوس التي يعثر عليها في أفضل حالة ممكنة، كما يُشرف على تركيبها وتوصيلها، لم يكن يفارق كتبه أبدًا، يبحث طوال الوقت عن أفضل الطرق لتحسين آلته وتطويرها، كما اختار بنفسه أن يتم بناء ربة الحرب على شكل لَبُؤة، لتمثل رَبّة الحرب بالفعل، وبدأت شخصية سيا تأخذ طابعًا أكثر قسوة، وخيمت على وجهه سحابة من الغموض ألقت بالمهابة في قلوب جنوده، إلا أنه كان متحدثًا لبقًا، يستميلهم إليه بقوة العقل، والدين، بوجود الكاهن توت ـ آنوب معه، ومن أصبح في صفه من كَهَنة، بل ومن رِجال البلاط، بمجرد الانتهاء من صنع ربّة الحرب، سيزيح سيا كل مراكز القوة من طريقه، ولكن حلول الشتاء وهطول الثلج أبطأ من تقدم عملهم، كما أن سيا لم يعد يذهب

كثيرًا إلى موقع العمل، بل كان مشغولًا بإدارة الخيوط السياسية داخل القصر بنفسه، مستعدًا للمعركة الأخيرة، أما الملك نخاو فأصبح شكّه في سيا يزداد بمرور الوقت، وبدأت كلمات هامسة تردد اسم توت ـ آنوب في أرجاء المعبد، واسم سيا داخل القصر، وأصبح واضحًا ان هناك مواجهة موشكة على الحدوث، ولكن لا أحد خارج دائرة سيا كان يعلم بسلاح سيا الجديد، ربّة الحرب، وبمجرد انتهاء الشتاء، أصبح سيا مُستعدًا لبدء فصل جديد في حياته، فصل يُصبح فيه ملكًا.

***

استيقظ سيا قبل الفجرِ على حركةٍ غَريبة أمام بابِ غُرفته، تنبهت على إثْرها كلَ حواسه، وفجأة اقتحم مجموعة من جنود الملك غرفته، فصاح في غضب:

– كيف تجرؤون على اقتحام غرفة أميركم؟

فقال قائد الحرس ساخرًا:

– هذه أوامر الملك نخاو يا سُمُوّ الأمير، فقد صدر أمرًا باعتقالك.

أدرك سيا بدون تفكير أن أبيه قد قرر المُبادرة بِبدء الحرب قبل أن ينقلب سيا عليه، فقفز من فِراشه وهو يُمسك بسيفه ويقول:

– تراجعوا أيها الحمقى وإلا أرديتكم كلكم قتلى!

فقال قائد الحرس عاقدًا حاجبيه:

– لا يمكنك كَسْر الأوامر الملكية حتى لو كُنت الأمير!

وعلى إثر كلماته تقدم الحرس للامساك به، ولكن سيا وبحركة سريعة من سيفه ذبح أحد الحراس، فتناثرت الدماءُ على وجهه وملابسه وفراشه الملكي، وتراجع الجنودُ الأخرون في فزع، فصاح بهم قائدهم:

– أمسكوا به أيها الحمقى.

وعلى الفور شَكّل الجنودُ نِصْف دائرة وهم يُطبقون على سيا، الذي ألقى سيفه جانبًا وقال:

– حسنًا لا بأس سآتي معكم.

تعجب الحرس من تغيير موقفه المفاجئ، ولكن سيا كان يتراجع للوراء مما أثار ريبتهم، فقال القائد:

– أرجوك لا تتحرك!

ولكن سيا قفز ناحية فِراشة ومدّ يده أسفل وِسادته واستل أحد أسْلِحَته الصغيرة، وأشهر فُوّهته باتجاه الحَرَس الذين يجهلون هذا الشيء، ولكن طريقة إمساكه له أصابتهم بالتوتر، فقال القائد مجددًا:

– أيًا كان هذا الذي تُمسكه في يدك يا سيدي فلتضعه جانبًا.

فالتمعت عينا سيا في بريق شرس وقال:

– هذا هو المُسْتَقْبَل الذي وُلد من رَحِم الماضي.

ثم أطلق سِلاحه على أقرب الجنود إليه، فصَدَر من فُوّهته دويٌّ كالبرقِ انفجرت على إثره جُمْجُمَةُ الجندي وتَناثرت فِتاتها على وَجْه بقية الجُنود الذين تجمدوا في ذهول، استغله سيا للقفز من نافذةِ حُجرته تاركًا الغُرفة مُشبَعة برائِحة الدمِ والبارود، ليهبط في حديقة القصر، وتحرك مُستترًا بظلامِ الليل الذي يلفظُ أنفاسه الأخيرة قبيل الفجر، مُرديًا كل من يعترض طريقه بسلاحه، وصوت دويّه المرتفع يشقّ السُّكُونَ المُخيْم على أبيدوس، حتى وصل سيا إلى موقعه الخاص، حيث ينتظره رجاله، وحيث تنتظره ربّة الحرب.

***

جلس سيا في غُرفة تحريك آلته العِملاقة وهو يشعر بالتوتر، تجاربه على هذا الشيء لم تنتهي بعد، لقد كان بحاجةٍ إلى المزيدِ من الوقتِ لصَقْل الآلة واختبارها، ولكن الظروف لم تُتِح له الوقتَ الكافي، لقد بدأت الحَرْبُ، وهكذا تحرك جيشَ سيا باتجاه مدينة أبيدوس. رغم قِلّة عددهم إلا أنهم كانوا مُسلحين بأسْلِحة لا تخطر على بال جنود الملك، حيث زُوِّد كُل واحدٌ من رجاله بأحد الأسلحة التي تستخدم البارود، كما أنه قام بعمل بعض المدافع العِمْلاقة التي تستطيع تحطيم أسوار أعتى المُدُن، ووسط جيش سيا تتحرك الآلة العملاقة، اللَبُؤة التي صُنِعَت على شكل سخمت ربّة الحرب، المُسلحة بالمدافع والبارود ويتصاعد منها دُخّان الوقود المُحترق داخل مُحركاتها بشكل ألقى الرُعْب في قلبِ كل من رآها. على أسّوار أبيدوس الصخرية المرتفعة، وقف جُنود الملك نخاو مسلحين بالأقواس والأسهم، والمُشاة على الأرض مُسلحين بالسيوف، ولكن أسلحة جنود سيا كانت تقتل أي رجل منهم بطلقةٍ واحدة، أما ربّة الحرب دَمَّرَت البُوّابة العِمْلاقة بمدافعها، واجتاح الرُعب والفَزَع قُلوب كل قاطني أبيدوس وقاطني القُرى الصغيرة المُترامية حول أسّوارها وهم يسمعون أصوات الانفجارات غير المعتادة، ويرون القذائِف السوّداء تطير في السماء لتسقط على البيوت الصخرية وتدمرها، هل هذه هي حرب نهاية العالم؟ هل هبطت الآلهة على الأرض لتُوقع العقاب بالعُصاة والخاطئين؟ لم يُدرك إلا عدد قليل أن هذه هي حرب على السُلّطة والمُلْك، وقد بَدَت نتيجتها مَحْسُومة من قبل أن تبدأ، وتراجع جُنود الملك نخاو في رُعب ناحية القصر، أو ألقوا أسلحتهم مُستسلمين إلى جيش سيا، أما المَلِك نفسه وأبناءه الستّة فلم يقدروا على الاستسلام وهم يرون الابن العاق والأخ الأصّغر بينهم يجرؤ على الانقلاب على أبيه، وكان أكثرهم غضبًا سخموي ولي العَهْد، وحامِل اللَقَب. هكذا

وقفت ربّة الحرب أمام القصر، مُخلّفة ورائها خطًا طويلًا من الحِطام والدمار والنار والدُخّان، وتكلم سيا من داخل آلته بمكبر صوت زاد من صورته المُخيفة في أذهانِ العامة قائلًا:

– فلتركعوا جميعًا أمام ملك أبيدوس الجديد، الملك سيا.

ولكن الملك نخاو تقدم وهو يقول في غضب:

– كيف جرؤت على أن تتحداني أيها الابن العاق، بألاعيبك السحرية، وتدنيسك لمقبرة الماضي، لا تظن أنك بتقمُّص هيئة الربّة سخمت ستخدعني أيها المارِق.

وفجأة سمع الجميع دويًا كالبرق يصدر من ربّة الحرب ورأوا الملك نخاو ينفجر ويتحول إلى أشلاء في مشهدٍ مفزع، وسيا يضحك في جنون ويقول:

– هل من أحدٍ آخر يرغب في الوقوف في طريقي؟

وهكذا ركع الأخوة الستة ـ وأولهم سخموي ـ معلنين إبداء فُرُوض الولاءِ والطاعة إلى ملكهم الجديد، الملك سيا.

صديق قديم

انتهى الشتاء حاملًا أخبارًا صادِمة إلى ملاذ، لقد قَتل الملك سيا أبيه واعتلى العَرْشَ من بعّده، مُستخدمًا أسلحة جديدة شيطانية ملعونة، أكثرها رعبًا هذا الوحش المسمى ربّة الحرب، كما أن الكاهن الأكبر الجديد توت ـ آنوب يُذّكي نِيران الكراهية بين أهل الجنوب تجاه الشمال، وأصبح واضحًا أنه لن يمضي وقتًا طويلًا حتى يأتي الدور على ملاذ كي تواجه حربًا ضروسًا مع أبيدوس، وأخذت الهَمَسات والشائعات تتناثر من هنُا إلى هُناك حتى وَصَلت إلى مَسامِع قاسم، الذي انْقبض قلبُه لسَماع الأخّبار، فقد أدرك أن سيا فَعَل ما كان يخشاه، مُستغلًا ما تعلمه منه، وشعر بداخله أنه يحمل إثْم تِلك الدِمَاء التي سَفَكَها سيا، وظَهَر ذلك جَليًا على مَلامحه، وأحس جده بما يَعْتَمل في صدره، فضمْه إليه وقال:

– ما بك يا ولدي؟

لم يعرف قاسم كيف يصف لجده ما يشعر به، كيف يُخبره أنه مِفتاح كل شرٍ ارتكبه سيا، وبكلمات مقتضبة حاول أن يشرح لجده ما حدث، ورغم أنه لم يفهم التفاصيل التقنية إلا أنه قال لحفيده:

– ما فعلته أنت كان بحُسن نية، وأنت لم تقصد تعليمه شرًا، والله لا يحاسب الإنسان إلا على نيته، فلا تبتأس يا بنيّ.

أحس قاسم بالارتياح لكلام جده، ولكنه كان يخشى من الخَطَر المُحدق بملاذ، وشاطره جده مشاعره، ولكن ماذا يمكن أن يفعلون؟ أحس قاسم أنه بحاجة إلى استشارة شخصٍ آخر، شخص أكثْر منه دِراية بعالم الصِراعات القاسي، فلم يتردد قاسم كثيرًا قبل أَن يتجه إلى مُعَسكر المنبوذين للقاء مُهاب، هو الوحيد الذي يُمكنه فهمه ونصْحِه في هذا الأمْر، ولما استقبله مُهاب هذا اليوم لاحظ التغيُّر على ملامحه، وبعد أن أخبره قاسم بما يفكر فيه لم يشعر مُهاب بالمفاجأة لأن الأخبار كانت قد وصلت إليه أيضًا، فقال له:

– لا أَحَد غيْرك يستطيع إيقاف سيا!

فنظر إليه قاسم بتساؤل وقال:

– ماذا تعني؟

رَبَت مُهاب على كتفه وقال:

– تلك الآلات التي صنعها سيا، لقد تعلّمها مِنك كما أخبرتني، يُمْكنك بالتأكيد أن تَصْنع شيئًا مضادًا لها، أليس كذلك؟

ظهرت الحيرة على وجه قاسم وقال:

– لا أعرف! لم أصْنع شيئًا بهذه الضخامةِ من قبل، ولا أعرف كيف يمده بالطاقة، الطريقة التي استخدمتها لتشغيل كاشف المعادن بسيطة للغاية، ولكنها لن تُشغل شيئًا مثل ربّة الحرب التي يتحدثون عنها!

حك مُهاب ذقنه مفكرًا وقال:

– بالتأكيد ليس سِحرًا، هناك طريقة لذلك وسنجدها، ولكنك لن تستطيع العمل وحدك، هناك جيش كامِل يأتمر بأمر سيا،

وأنت كذلك يَجِب أن يكون معك جَيْشًا يُمشط الأطلال القديمة والخرائب للبحث عن كل ما ينفعنا في المواجهةِ المقبلة.

قال له قاسم بدهشة:

– جيش؟ من تعني؟

فقال له مهاب:

– جيش راكان؛ الصيّادون.

سقطت الكِلْمة على قاسم كالصاعِقة، راكان! هذا الذي لا يرغب في شيء في الدنيا مثل رُؤيته مَيّتًا، أن يلجأ إليه كي يساعده، وعلى الفور ترجمت أفكاره إلى كلمة واحدة صادمة:

– مُسْتَحيل!

فقال له مُهاب:

– أفهم ما تشعر به، فأنا أكره راكان مثلك، بل أكثر مِنك لأني رأيت ما فعله بنفسي، ولكن الآن هو حاكم ملاذ، وهو من يَستطيع تحريك الصيّادين، وبدون مُساعدته لن نستطيع مواجهة هذا الخطر الجديد.

فقال قاسم بعناد:

– ومن أدراك أنه سيقبل؟

قال مُهاب:

– لأني اعرفه جيدًا، راكان رجل ذو نظرة عَسْكَريّة رُغم كل شيء، وسيُدرك حقيقة الخطر الجديد الذي لا يُهددنا وحدنا بل يُهدده أيضًا.

كان في نبراته ثقة لم يستطع معها قاسم أن يعترض، لقد قرر من البداية أن يثق في مُهاب، وسيفعل.

***

سار موكبٌ من المنبوذين باتجاه ملاذ، يتوسطهم قاسم ومُهاب، كانت هيئتهم مهيبة وهم يقطعون أطلال القاهرة القديمة على أحصنتهم، وحتى قاطني ضفاف النيل الصامتين الذين يحركون المراكب الميكانيكية ظهر في أعينهم الجامدة دهشة وهم ينقلون المنبوذين إلى الضفة الأخرى من النيل، ولكنهم لم ينبثوا ببنت شفة، فقط أخذوا عُملاتهم النحاسية وأدّوا دورهم. لم يتحدث قاسم طيلة الطريق، فقد كان عقله يَغْلي كالمِرْجل بألف فِكرة واحتمال، ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ من يدري؟ فقط عندما ظهرت أسوار مدينة ملاذ في الأفق أدرك أنه لم يعد هناك مجال للعودة، أما الصيّادين الواقفين على بوابة ملاذ قد شعروا بالصدمة لرُؤية مُهاب بعد كُل تلك السنوات، أما الصيادين الصغار فلم يعرفوا من هو مُهاب، فقال أحدهم باندفاع:

– هذه الرموز الحمراء! إنهم المنبوذين المطلوبة رؤوسهم لدى الزعيم راكان!

فوضع أحد الصيادين الكبار يده على كتفه وقال:

– تَمَهّل يا فتى؟

ثم صاح مُخاطبًا مهاب وهو يقترب من بعد:

– ما الذي عاد بك بعد كل هذه السنوات؟ أهي رغبة في الانتحار؟

ابتسم مهاب بسخرية وقال:

– بل هي رَغْبة في مقابلة صديقٍ قديم.

ثم قال بجدية وهو يشير بيده ناحية قاسم:

– أخبر راكان أن مُهاب يرغب في لقائه بشأن الخطر القادِم من الجنوب، ومعه قاسم بن عمار.

قال الصياد الشاب:

– هذا قاسم بن عمار؟ عمار الصيّاد الأسطوري!

أما الصيّاد الكبير فقد عَقَد حاجبيه مُفكرًا، الأمر أخْطر من أن يأخذ قرارًا فيه وحده، فقد فهم ما يعنيه مُهاب بالخطر القادِم من الجنوب، وهكذا وقف المنبوذون على الباب مُنتظرين الرد، فيما أرسل قائد الصيّادين رسولًا إلى راكان ليُخبره بالأمر، فقطع الرسول شوارع ملاذ عدوًا كالريح بحصانه، قبل أن يعود بإجابة راكان، فلتفسحوا الطريق لهم!

لم يُصدق قاسم نفسه وهو يسير بجانب مُهاب في شوارع مدينة ملاذ، مُتجهين ناحية الحِصن مقر الصيادين، هذا المكان الذي طالما سمع عنه، أو رأى أسّواره من بعيد، بدون أن يعرف ما بداخله، فهو يعد أكثر الأماكن غموضًا في قلب ملاذ، أخذت الأعين الفضولية تلاحقهم في كل شارع يقطعونه، ولكن لم يتعرض لهم أحد بسبب وجود الصيادين معهم، حتى وصلوا أخيرًا لأسوار الحِصْن، وأشار قائدُ الصيادين لهم بيده فقاموا بفتح البوّابة الحديدية الضخمة، التي انفتحت بصريرٍ عالٍ ليدخل الموّكب إلى الداخل.

أحس قاسم بمُجرد عبوره البوّابة أنه قد انتقل إلى مدينةٍ أخرى، فالمكان يختلف بالداخل تماما عن طبيعة مدينة ملاذ القاسية، فقد ساروا بأحصنتهم عبر طرقٍ خضراءٍ مزروعة بشتّى أنواع الأشجار، وهَبّ عليهم نسيمٌ باردٌ وهم يعبرون خلال ظلالِ الأشجارِ الضخمة،

والصيّادين مُنتشرين في كل مكان، فقطع الموّكب مسافةً كبيرة حتى وَصَل إلى أبواب قَصْرٍ ضخمٍ، عندها ترجّل الجميع من أحصنتهم وتوجهوا ناحية القصر.

أحسّ قاسم بمزيج من الانبهار والغضب وهو يدلف عبر بوابة القصر، ويقطع ممراته الواسعة، إذن فالصيادين ينعمون بكل ذلك في الحصن والناس بالخارج قد يقتلون بعضهم البعض من أجل وَجْبَة طعام! قطع أفكاره وصولهم إلى بهوٍ مُتسعٍ شاهق الارتفاع، وبمنتصفه باب خشبي مُزخرف يقف أمامه صيادان، فتراجع قائد الصيادين وقال:

– سيتقدم مُهاب وقاسم فقط!

أشار مُهاب لرجاله فأومأوا له برؤوسهم موافقين، أما قاسم فانتابه إحساسٌ بالمهابة لمقابلة راكان زعيم الصيادين وحاكم ملاذ، لطالما سمع عنه ولكنه لم يره من قبل وجهًا لوجه، وبعد ما سمعه من مُهاب عن أفعاله السابقة فكان يشعر تِجاهه بكراهيةٍ كبيرة، والآن عليه أن يتعاون معه. لم يُمهله مُهاب لأفكاره بل وَضَع يده على كتفه وهما يدخلان إلى غُرفة راكان، فوجد قاسم نفسه في غُرفة واسعة شاهقة تفوق رفاهيتها كل ما رآه قاسم داخل الحصن، فقد تعلقت المصابيح بالسقفِ وعلى الجدران، وفُرشت الأرضُ بجلودِ الحيوانات، وبمُنتصف الغُرفة يوجد مقعد صخري مرتفع نوعًا يجلس عليه رجلٌ جاد الملامح يبدو عليه الحزم والصرامة، ويُحيط به مجموعة من الصيادين حادي القسمات مفتولي العضلات، الذين بدا من هيئتهم أن لهم مكانة كبيرة في مراتِب الصيادين، ولولا وُجود مُهاب بجواره لانتابه خوفٌ شديدٌ أو فكر في التراجع.

قال راكان بصوت أجش:

- الخائن يُظهر وجهه أخيرًا بعد كل تلك السنوات!

فقال له مُهاب ببرود:

- أظن أن كلينا يعرف من هو الخائن بيننا!

ارتسم الغضب على وجه الصيادين، فقال راكان:

- إن كُنت قد أتيت لتردد مثل هذا الهراء القديم فسآمر بقطع رأسك على الفور!

قال مُهاب:

- لم آتي إلا من أجل إنقاذ ملاذ.

فقال له راكان:

- توقف عن الحديث بالألغاز، وأفصح عما يدور في رأسك على الفور.

فقال له مُهاب:

- أظنك تعرف ما حدث في الجنوب، من مقتل الملك نخاو، واعتلاء سيا سدة الحكم، والجيش الذي يقوده الذي لا قبل لأحدٍ به!

فقال راكان:

- نعم سمعت، ولكن الامر يبدو كالحكايات الخيالية، هذا الجيش المزعوم ...

قاطعه مُهاب وقال:

- ليس مزعومًا، فقاسم يستطيع شرح كل شيء.

تفاجـئ قاسـم عندمـا سـمع اسـمه فجـأة، فقـد كانـوا يتحدثـون مـن البدايـة كأنـه غـير موجـود، وقـد أراحـه هـذا بعـض الـشيء، والآن يـرى نفسـه فجـأة في مركـز الاهتـمام، فـما أن نطـق مهـاب اسـمه حتـى صُوبـت كل العيـون نحـوه، وتـرددت بعـض الهمسـات، فيـما قـال راكان:

– إذن هذا هو قاسم بن عمار!

قال قاسم:

– أجل هو أنا.

فقال له راكان:

– وماذا لديك لتقوله أيها الفتى؟

تجاهـل قاسـم السُـخْرية التـي تُبطـن كَلمـة فتـى التـي قالهـا راكان، وبـدأ يقُـص بشـكلٍ مختـصر مـا حـدث منـذ مقابلتـه لسـيا، والتفسـير الموجـود لديـه لجيـش سـيا، ومـا دار بينـه وبـين سـيا في خربـة الجـن، وراكان يعقـد حاجبيـه مفكـرًا، ولمـا انتهـى مـن حديثـه قـال راكان:

– إذن فأنت وراء كل هذه المَصَائب؟

فقال مُهاب مدافعًا:

– لا ذنـب لقاسـم في ذلـك، وقـد حـضر اليـوم إلى هنـا لأنـه يسـتطيع مسـاعدتكم في إنقـاذ مـلاذ.

فقال راكان باهتمام:

– وكيف سيفعل ذلك؟

نظر مهاب إلى قاسم، فتنحنح وقال:

- حسـنًا، أنـا أملـك النظريـة لحركـة هـذه الآلات، وأعتقـد أننـي يمكنني تطّبيقهـا لعمـل آلات تسـتطيع مجابهـة جيش سـيا.

قال له راكان:

- تعتقد!

فقال قاسم:

- بل أنا مُتأكّد، أحتاج فقط إلى بعض الأشياء.

ثم أخذ بكلماتٍ بسيطة يشرح خِطّته لراكان والصيّادين.

oberikan.com

منجم الحنش

لم يُصدق أحد أن يتعاون راكان ومُهاب مجددًا، أعطاهم هذا التحول الجذري في الأمور فكرة عن طبيعة الخطر المقبل، وأصبح مُهاب يتحرك بين الصيادين والمنبوذين يأمُرهم على حدٍ سواء، ولوهلة كاد الناظر لا يفرق أحدهم عن الآخر، لولا الرسوم الحمراء على وجه المنبوذين. استعاد الصيادون القدماء ذِكرى أيّام الصيادين حينما كان عمار على قيد الحياة، وبدأ بعضهم في الخفاء يردد بنبرات هامسة أن مُهاب ربما ليس بهذا السوء الذي صوره راكان، فحتى الصيادين الصغار الذين لم يعيشوا الأيام القديمة أعجبوا بشخصية مُهاب القوية وروحه المرحة في مزيج لم يروه في قادتهم من قبل. أما قاسم فكان هو العقل المدبر، يقود فرق النباشين وجامعي الخردة عبر أطلال القاهرة القديمة، يفرق بين القطع المفيدة وعديمة الجدوى، ثم يعود بها إلى ملاذ حيث تم تأسيس مقر خاص له في مُقاطعة الحدادين يتم فيه تجميع تلك القطع، وقد اختار صديقه الحداد أويس ليقود فرقة الحدادين في صُنْعِ الآلات، وأصبحت هناك سحابة كثيفة من الدُخّان تعلوا مُقاطعة الحَدادين حيث يجري العمل على قدمٍ وساق بتعاون جميع الأطراف.

في الوقت ذاته كانت عيون راكان تراقب الجنوب، حيث فرض سيا سيطرته بالخوف على الجميع، وضم إلى أبيدوس كل المناطق المحيطة بها، واستهدف كل البُلْدان الصغيرة المُستقلة، وقد استطاع

رجـال راكان وصـف مـا رأوه لقاسـم، الـذي فهـم طبيعـة مصـدر الطاقـة الـذي يسـتخدمه سـيا، فقـال لمهـاب:

- إنـه يسـتخدم نوعًـا قديـمًا مـن الطاقـة يتـم توليـده في المُحـركات عـن طريـق حـرق الوقـود، فهـو يسـتخدم الخشـب والقـش في توليـد نـوع مـن الغـازات الـذي يمكـن عـن طريـق عمليـات كيميائيـة مُعقـدة تحويلـه إلى غـاز.

فقال له مهاب باهتمام:

- ألا يمكن أن نستخدم نفس الطريقة في توليد الطاقة؟

قال قاسم بأسف:

- سـيأخُذ الأمـر وقتًـا طويـلًا، ونحـن بحاجـة لمصـدر طاقـة سريعـة تحسـبًا لهجـوم سـيا في أي لحظـة.

تفهـم مُهـاب رأيـه ولكنـه أصر عـلى أن يـشرح لـه قاسـم طريقـة توليـد تلـك الطاقـة التـي تحـدث عنهـا، فأخـذ قاسـم يـشرح لـه مـا قـراه في الكتـب القديمـة، واسـتوعب مُهـاب كل مـا قالـه، وبـدأ يوجـه رجالـه للعمـل عـلى تلـك الفكـرة الجديـدة، أمـا قاسـم فاسـتمر في فكرتـه يبحـث عـن مصـدر طاقـة سريـع ومتجـدد في الوقـت ذاتـه، يـكاد لا ينـام إلا سـويعات قليلـة، فيومـه كلـه مـا بـين النبـش في الأطـلال، والإشراف عـلى صِناعـة الآلات في حـيّ الحدادين، وقـراءة الكُتُـبِ للبحـث عـن أي معلومـة قـد تنفعـه، أصبحـت هنـاك هـالات سـوداء أسـفل عينيـه، وطـال شـعره بشـكلٍ غـير مسـبوق وتناثـر حـول وجهـه، وتجاهـل كل النصائـح التـي أسـداها لـه الجميـع بشـأن راحتـه، إلا أنـه كان يفتقـد أمـرًا واحـدًا، وهـو صُحبـة جهـاد، تمنـى لـو كانـت معهـم في تلـك المرحلـة الصعبـة، لعلهـا تخفـف عنـه قليـلًا، ولكـن مُهـاب أخـبره أنهـا بصحبـة مـن تبقـى

مـن المنبوذيـن في المُعَسـكر تتـولى أمرهـم، وخاصـة النسـاء والأطفـال، وقـد قـال لـه قاسـم ذات مـرة:

– لمـا لا تدعهـم يعـودون إلى مـلاذ وقـد انصلـح الأمـر بينك وبـين راكان.

فقال له مُهاب:

– لا تصـدق الصُلـح الظاهـري بينـي وبـين راكان، فـراكان ثعلـب ماكـر خبيـث، إنـه يعـرف أن الخطـر القـادم لا يقـدر عـلى مُجابهتـه وحـده، فهـو ينتظـر أن يقـضي عـلى الخطـر المشـترك قبـل أن يعـود وينقلـب عـليّ مـرةً أخـرى.

فقال قاسم بخوف:

– وماذا ستفعل حينها؟

فابتسم مهاب وقال:

– في الحقيقة لا أعرف، فكل ما أفكر فيه الآن هو إنقاذ ملاذ.

ثم رَبَت على كتفه وقال:

– ولكـن لا تقلـق لـن استسـلم بسـهولة، سـأقاوم كـما قاومـت كل الأعـوام السـابقة، فأنـا لسـت فريسـة سـهلة.

ابتسـم قاسـم رُغـمًا عنـه، ولم يسـأل مهـاب عـن الأمـر بعـد ذلـك، بـل اسـتغرقوا جميعًـا في العمـل عـلى خطـة إنقـاذ مـلاذ.

***

عثـر قاسـم عـلى ضالتـه في إحـدى الكتـب القديمـة، تتحـدث عـن أمـرٍ مـا حـدث قبيـل الحـرب العظمـى بفـترة بسـيطة، فقـد اسـتطاع العلـماء عن طريـق عمليـات معقـدة مـن التفاعـلات الذريـة تخزيـن طاقـة كبـيرة في

obeikan.com

كبسولات صغيرة أطلقوا عليها اسم خلايا الطاقة، وقد أنتجوا منها عددًا قليلًا بسبب خطورتها، فبحسب المكتوب أنه إذا زاد الضغط على الخلايا، أو زادت حرارتها بشكل كبير، ستنفجر مُولّدة طاقة كبيرة تُماثل قُنْبلَة نووية محدودة، تلك القنابل التي ساهمت في انهيار الحضارة البشرية بشكل متسارع. لم يعد من المُمْكن إنتاج مثل تِلك الخلايا الآن، ولكن تلك الخلايا لديها ميزة الحفاظ على الطاقة لعقود طويلة، بل قرون، لو عثر قاسم على واحدة او اثنتين ستمثل فارقًا كبيرًا في سِباق الحصول على الطاقة، وهكذا أصبحت مهمة الصيادين الجديدة هي البحث عن تلك الخلايا بين الخرائب والأطلال، إلا أن البحث عنها كان مثل البحث عن إبرة في كومة قش، هكذا قال مُهاب لقاسم وهو ينهار على إحدى الكراسي في تعب، فبرقت عينا قاسم وقال:

– ماذا قلت؟

قال مُهاب:

– قلت لك أن البحث عن خلايا الطاقة تلك كالبحثِ عن إبرةٍ في كوّمَة قشّ!

فقال له قاسم:

– لكي تبحث عن إبرة في كومة قش، تحتاج فقط إلى مغناطيس.

لم يفهم مُهاب ما يعنيه قاسم الذي أخذ يبحث في لهفة بين أوراقه، حتى عثر على نموذج كاشف المعادن، وقال له:

– هذا الجهاز الذي صنعته لكشف المعادن، بتعديل بسيط، أو في الحقيقة هو تعديل مُعقّد، يمكنني تغيير مهمة الجهاز للبحث عن الطاقة!

فقال مُهاب منبهرًا:

– هل تستطيع فعل هذا حقًا؟

فقال قاسم لكيلا يرفع من سقف توقعاته:

– أو هذا هو ما أتمنى فعله.

فربت مُهاب على كتفه وقال:

– المُهم أن هناك أمل.

قضى قاسم الأيام التالية في العمل على فكرته الجديدة، مستعينًا بصديقه أويس وخبرته في المغناطيسات، حتى صنع نموذجًا أوليًا من جهازه، وبعد ذلك قام بصَقْل الجهاز وتعديله وتحسينه حتى أصبح جاهزًا للقيام بمهمته، واعتاد الصيادين على رؤية قاسم بجهازه الغريب الذي يحمله على ظهره كالحقيبة، والذراع الطويلة الممدودة التي يمسكها قاسم بيده ويحركها تجاه الخردة، فتطلق من آنٍ لآخر صفيرًا خافتًا، يجد قاسم على اثره بطارية صغيرة من الزمن الماضي مازالت تحتفظ ببعض الطاقة الضئيلة، ولكنها لم تكن ما يطمح إليه، وهكذا أخذت دائرة البحث تتوسع حتى خرجت من دائرة أطلال القاهرة القديمة، وبدأ البحث يتوغل في الصحراء، فقال له مُهاب:

– لا أرى فائدة من ذلك!

فقال قاسم بتصميم:

– لا يمكننا تجاهل أي مكان، على البحث أن يستمر حتى نعثر ولو على خلية طاقة واحدة!

لم يُعارضه مُهاب أكثر من ذلك، ولكنه حرص على أن يصحبه في رحلته خارج أطلال القاهرة، حيث تزداد الأخطار، وأحس قاسم بالامتنان لوجود مُهاب معه.

أخـذ جهـاز قاسـم يصـدر أزيـزًا خافتًـا وهـو يقطـع الصحـراء الغربيـة، فتسـارعت نبضـات قلبـه، ومهـاب يسـأله:

– ماذا هناك؟

فقال له قاسم:

– يشير الجهاز إلى وجود مَصْدر طاقة قريب!

ثـم تحـرك ممسـكًا بـذراع جهـازه ومهـاب يتبعـه مـع مجموعـة مـن الصيادين، ولم يمـض وقـتٌ طويـلٌ حتـى وصلـوا إلى أحـد جِبـال الصَحراء الغربيـة، وبسـفحه فتحـة سـوداء مظلمـة أشـار ناحيتهـا قاسـم وقـال:

– مصدر الطاقة من هنا.

فقال مهاب عاقدًا حاجبيه:

– يبدو كمنجمٍ مهجور.

قال له أحد الصيادين:

– ألا تعرف ما هذا؟

قال له مهاب:

– ماذا؟

فقال الصياد في خوف:

– إنه مَنْجم الحنش!

قال قاسم:

– ما الذي يعنيه هذا؟

قال الصياد شارحًا:

- هـذا كان منجـم ذهـب قديـم، وقـد هجـره العـمال بعـد ظهـور أفعـى سـوداء عظيمـة، قالـوا إنهـا تسـتطيع اعتصـار عامـل بالـغ بجسـدها وابتلاعـه دفعـة واحـدة، وقـد حـاول العديـد مـن الصيادين القضـاء عليهـا ولكـن كل مـن دخـل المنجـم لم يَعُـد منـه حيًـا، ومُنـذ أن هجـره العُـمال لم تخطـو قـدم واحـدة داخـل المنجـم، ويخشـى الجميـع الاقتراب منـه!

فقال قاسم:

- ولكـن جهـازي يشـير إلى وجـود مصـدرٍ للطاقـة بالداخـل، وقـد تكـون خليـة طاقـة ...

قاطعه الصياد قائلًا:

- اللعنـة عـلى خلايـا الطاقـة تلـك أيًـا كانـت، أقـول لـك لم يعـد منـه حيًـا، لـن يخطـو واحـدٌ منـا داخـل هـذا المنجـم اللعـين.

لم يكـن مـع مُهـاب وقاسـم إلا اثنـين مـن المنبوذيـن المُسـتعدين لبـذل حياتهـم مـن أجـل قائدهـم، أمـا رجـال راكان فقـد تراجعـوا في خـوف، فقـال لهـم مُهـاب بغضـب:

- حسـنًا إذا أردتـم أن تتراجعـوا كالجبنـاء فلتبقـوا هنـا، سـأذهب أنـا ورجـالي لتفقـد هـذا المنجـم.

وهكـذا تقـدم قاسـم ومهـاب ورجالـه الاثنين ناحيـة مدخـل المنجـم، وأحـس قاسـم أنـه كوحـشٍ فاغـر فـاه مسـتعدًا لابتـلاع كل مـن يجـرؤ عـلى الاقـترابِ منـه، ولكـن وجـود مُهـاب معـه طَمْأنـه قليـلًا، وهكـذا دلـف أربعتهـم إلى المنجـم، وسـاروا بخطـواتٍ حـذرة في ممراتـه الصخريـة،

وكلما تعمقوا أكثر في الجبل مُبتعدين عن مَدْخل المَنْجم؛ خفتت أضواء النهار القادمة من خارجه، وبدأ المنجم يغرق في ظلامٍ دامس، وصوتٌ هادر يأتي من أعلاه بفعل ثقل الجبل على منجمه، وهو صوت مميز يعرفه كل من عَمِلَ داخل مَنْجم من قبل، وأحس قاسم بشجاعته تخفت وبدأ الخوف يحل محلها، وأحس أنه تسرع في قراره، ولكن سبق السيف العزل، لا يمكنه العودة الآن بعد حديث مُهاب واتهامه للصيادين بالجبن، كما أن الأزيز الصادر من جهازه بدأ يعلوا في دلالة مبشرة بوجود شيءٍ ما.

ظهرت آثار العُمّال الذين هجروا المنجم واضحةً على جُدْرانِ المنجم، الذهب الذي تم التنقيب عنه تبدو آثاره واضحة وباهتة، وعلى الجدران الصخرية تناثرت بعض المشاعل اليدوية التي استخدمها العُمّال في إنارة ممرات المنجم. مَدّ مُهاب يده وانتزع واحدًا من المشاعل الملعقة على الحائط، كان مشعلًا بسيطًا مكونًا من خشبة ملفوفة بقطعة قُماش سميكة، وأمر رجاله أن يفعلوا مثله ثم بحث حوله كثيرًا عن براميل القار المستخدمة في المناجم التي تركها العُمّال ورائهم بالتأكيد، وبالفعل عثر على واحد ، فغمسوا القُماش في القار، ثم استخدم قاسم قداحة صغيرة يحملها معه تعمل على احتكاك قُطبين متعاكسين يولدان شرارة كهربية صغيرة، وسرعان ما أمسكت الشرارة في القطعة القماشية المبللة بالقار، لتشتعل بلهيبٍ حاد ويسطع ضوءُ المشاعل في قلب المنجم، ثم أكملوا سيرهم، وكلما توغلوا في المَنْجم ازداد التنفُس صعوبة، وصوتُ هدير الجبل المخيف يأتيهم من كل مكان كأن الجبل له قلبٌ نابض، وفجأة سقط ضوء المشاعل على عُروق ذهبٍ خام لم يمسها العُمّال فالتمعت بشدة بلونها الأصفر، مثيرة بهجة الرِجال حيث فكروا في الثروة التي يُمكنهم الحصول عليها، أما قاسم فأعجبه جمال المنظر الذي لم يرى مثله من قبل.

لم يَعُد أحدًا منهم يرى مدخل المنجم، ولا يوجد ما يُضيء طريقهم سوى تلك المشاعل البدائية، وفجأة أحسّوا برجةٍ غريبة تأتي من إحدى الممراتِ القريبة، وتناهى إلى مسامعهم صوتٌ يُشبه غليان الماء على المرجل، فحيحٌ متواصلٌ مستمرٌ، فارتجف قاسم وسقط قلبه بين قدميه، واستل مهاب ورجاله سيوفهم من أغمادهم في حركة حادة، وأخذوا يتلفتون حولهم في خوفٍ بحثًا عن مصدر الصوت.

فجأة بَرَزَت من إحدى الممراتِ الصخرية رأس سوداء بأعين صفراء مشقوقة تنظر ناحيتهم بنظرات مخيفة، ورأوا أمامهم أفعي سوداء بشعة، تُصدر صوتَ فحيح يصُم الآذان، وهي تقترب منهم بنظرات عدوانية، فأحس قاسم برعبٍ شديدٍ يشل أطرافه، ورآها تنساب على بطنها بحركة ملتوية وتنتصب مرتفعة لأعلى، ففاق ارتفاعها أطولهم، وفجأة صاح فيهم مُهاب لكيلا يتسمروا في موضعهم، فاستعادوا قُدْرَتهم على الحركة، فاستداروا ليركضوا في الاتجاه المُعاكس، والأفعى السوداء تتبعهم بهسيسها المخيف، وهي تضرب جوانبَ المنجمِ بذيلها بقوةٍ كبيرة تهز الجُدران الصخرية، واقتربت منهم كثيرًا حتى لم يعد يفصلها عنهم إلا عدة أقدام قليلة ثم انقضت الأفعى على قاسم الذي تخلف عنهم قليلًا، فأحس قاسم بغريزته بحركتها المفاجأة فقفز جانبًا لتصطدم الأفعى بإحدى الصخور وتحطمها، قبل أن تستعيد توازنها وتطاردهم من جديد.

أدرك قاسم أن الركض لن يجدي نفعًا، وأخذ يفكر في طريقة لمواجهة تلك الأفعى المخيفة، وفجأة لطمت الأفعى أحد الرجال بذيلها لتصدم رأسه بالجدار الصخري بقوة وتتهشم بصوت مسموع، فسقط على الأرض جثة هامدة، فاق هذا المشهد أكثر كوابيس قاسم بشاعة، وأحس بيأسٍ شديدٍ يتسلل إلى قلبه، لن يخرُج أحدًا منهم

حيًا من هذا المنجم! وفجأة تسلل لأنف قاسم رائحة القار النفّاذة، فقال لمُهاب:

– حاولا أن تشغلا الأفعى.

فقال له مُهاب:

– ماذا ستفعل؟

ولكن قاسم لم يجيبه بل قفز قفزةً أخرى باتجاه براميل القار وأخذ يقلبها ليَسيل السائلُ الأسودِ اللزجِ على الأرض، فعل ذلك عِدّة مَرات حتى أصبحت الأرضُ سوداءَ بلونِ القار، وفاحت الرائحة في كل مكان، وشاهد مُهاب يقفز جانبًا متفاديًا ضربة ذيل الأفعى، ولكنها ضَمْتَ الرجلُ الآخر بذيلها واعتصرته بقوة فأخذ يصرخ في ألم، وسمع مُهاب صوت تحطم عظامه، فصاح فيه قاسم:

– إلى هنا!

ركض مُهاب ناحيته، والأفعى تتبعه بإصرار بعد أن ألقت جثة الرجل المحطمة جانبًا، وأخذ جسدها يتلوث بالقار، وهي تقترب منهم، فقال مُهاب بفزع:

– ماذا ستفعل؟

فأمسك قاسم بمشعل معلق على الحائط وغمسه في القار، ثم أشعله بقداحته، وفي تلك اللحظة كانت الأفعى تفتح فاها وهي تقترب منهما مصدرة هسيسًا مخيفًا، فألقى قاسم بالمشعل ناحية الأفعى الغارقة في القار لتُمسك ألسنة اللهب في جسدها، فأخذت تتلوى بألم وهي تضرب بذيلها ذات اليمين وذات اليسار، والمَنْجم يرتج بقوة، فتراجع قاسم ومُهاب في خوف، وفجأة انهار جزءٌ كبيرٌ

مـن سـقفِ المنجـم عـلى الأفعـى، ورُدِمَـت أسـفل كوّمـةٍ مـن الصخـور. راقباهـا حتـى همـدت حركتهـا تمامـا، ثـم نظـر مُهـاب لقاسـم وقـال لـه:

– فعلتها يا فتى!

فقال قاسم بألم:

– ولكن الأمر كلفنا اثنين من أصدقائنا!

قال مُهاب بحزن:

– لقـد دفعـا حياتهـما إيمانًـا بقضيتـك، وعليـك ألا تجعـل تضحيتهـما تذهـب هبـاءً!

أومـأ قاسـم برأسـه مُوافقًـا، ثم سـارا في ممـرّات المنجم باحثين عـن طريقٍ آخـر يسـلكانه بـدلًا مـن الممـر الـذي سـده انهيـار الصخـور عـلى الأفعـى، متتبعـين أزيـز الجهـاز الـذي يحملـه قاسـم، لم يعـترض طريقهـم شـيئًا بعـد ذلـك، وأزيـز الجهـاز يـزداد حتـى تحـول إلى رنـين، فأحـس قاسـم بالحماسـة وتسـارعت خطواتـه، حتـى وصـل إلى طريـقٍ مسـدود، بـه عربـة معدنيـة ضخمـة قديمـة غريبـة الشـكل، لهـا مقدمـة مدببـة، فقـال مُهـاب متعجبًـا:

– ما هذا؟

فكر قاسم قليلًا ثم قال:

– يبـدو أن هـذا المنجـم لم يُحفـر قريبًـا، بـل حفـر قبـل الكارثـة، حيـث اسـتخدم البـشر تلـك الآلات لحفـر المناجـم، وربـما لهـذا السـبب سـكنته تلـك الأفعـى، فقـد هجـر لفـترة طويلـة، ولمـا عثـر عليـه الصيّـادون أعـادوا اسـتخدامه وفرضـوا عـلى النـاس العمـل فيـه قبـل أن تظهـر تلـك الأفعـى.

ثم اقترب من المركبة وبدأ يتفحصها جيدًا، حتى استطاع أخيرًا فتح كُوّة معدنية في مؤخرة المركبة، وأخرج منها كبسولة عجيبة الشكل لم يرى مهاب مثلها من قبل، والتمعت عينا قاسم في فرح وقال غير مصدق نفسه:

– لقد فعلتها، لقد عثرت عليها!

فابتسم مُهاب بفرح أيضًا، يمكنهم الآن البدء في المرحلة التالية من خطتهم .

obeikan.com

طبول الحرب

دخل مُهاب على قاسم في مقرِ عمله بمُقاطعة الحدادين ووجده يعمل على صقل أحد السيوف فقال له متسائلًا:

– هل تظن أن السيوف تقدر على مُجابهة أسلحة جيش سيا، أو تلك الوُحوش المعدنية التي يتحدثون عنها؟

فابتسم قاسم وقال:

– ليست السيوف وحدها، بل هناك إضافة صغيرة.

ثم قام بتوصيل جهاز صغير غريب يخرج منه عدة أسلاك بالسيف وقال:

– هذا الجهاز الذي أضفته للسيف سيعزز قوته بشكل كبير.

قال مهاب بنبرة متشككة:

– حقًا!

فابتسم قاسم وقال:

– هل ترغب في التجريب؟

قال مهاب مترددًا:

– يبدو الأمر خطيرًا.

obeikan.com

فأحضر قاسم قطعة من الفولاذ الصَلْد وقال:

– السيف العادي لا يستطيع اختراق الفولاذ، ولكن هذه الإضافة ستغير من هذا الأمر.

وبعد أن زود الجهاز بالطاقة وحرك السيف في الهواء عدة مرات بدأت بعض الشرارات الكَهْربائية تتناثر منه، ثم هوى قاسم بسيفه على القطعة الفولاذية فشطرها نصفين، فارتسم على وجه مُهاب مزيدًا من الذهول والاعجاب، وقال له:

– أنت رائع حقًا!

ثم تذكر شيئًا فقال:

– ماذا فعلت بخليةِ الطاقة؟

فقال قاسم:

– سأستخدمها في صُنع شيء يستطيع مجابهة ربّة الحرب.

فتح مهاب فاه ليطرح سؤالًا آخرًا، ولكن صخبًا جاء من الخارج قطع أفكاره، فخرج بصحبة قاسم ليرى ما الأمر، فوجد راكان بصحبة مجموعة من قادة الصيادين يتفقد المكان من فوق صُهوة حصانه، والصيّادون يهللون لرؤيته في حماس، وما أن رأى راكان مُهاب حتى قال له:

– من كان يصدق أن تلك الخُرْدة يمكن تحويلها إلى سلاح!

فقال مهاب:

– الفضل لقاسم بن عمار، إنه ذكي كأبيه و....

قاطعه راكان قائلًا بلا مبالاة:

– حسنًا، فهمت.

ثم صاح في رجاله:

– استعدوا يا رجال فالمعركة مقبلة، ونحن من سينتصر!

ثم رفع يده في الهواء وصاح:

– عاشت ملاذ!

فصاح الصيادون جميعًا بصوتٍ واحد:

– عاشت ملاذ!

وراكان ينظر إليهم بفخر، متجاهلًا النظر إلى قاسم.

***

تفاجأت جهاد عندما رأت قاسم أمامها في مُعَسكر المنبوذين بصحبة أويس ومجموعة من المنبوذين بنقوشهم الحمراء، وأحست بسعادة غامرة لرؤية قاسم ولكنها تمالكت مشاعرها وهي تقول بتجلد:

– قاسم! كيف حالك؟

ابتسم قاسم وقال:

– بخير حال!

سألته متلفته وراءه:

– أين أبي؟

فقال لها:

– هـو في مـلاذ، ولم يـأتِ معـي، لقـد جئـت في مَهمْـة واحـدة، ومعـي صديقـي أويـس.

رفع أويس يده وقال مبتسمًا:

– هذا أنا، مرحبًا.

فأومأت له جهاد برأسها مرحبة، ثم قالت لقاسم:

– لم أفهم! ما هي تلك المَهمْة؟

أشـار قاسـم لأحـد المنبوذيـن فوضـع شـيئًا غريبًـا لم تـره جهاد مـن قبل، كانـت خليـة الطاقـة التـي عثـر عليها قاسـم ومهـاب في المنجـم، ثم قـال لها:

– سـتكون مَهمْـة المنبوذيـن هنـا هـي صناعـة سـلاح ليوقـف الربّـة، ربّـة الحرب.

***

اسـتدعى راكان مُهـاب إلى بلاطـه، فتوجـه إليـه عـلى الفـور، كان هنـاك أجـواء قَلِقـة مُتوتـرة في المـكان، وقـد فهـم مُهـاب الأمـر قبـل أن يقـول لـه راكان:

– جنـود أبيـدوس عـلى مَرْمَـى بِضْعَـة أميـالٍ مـن مـلاذ، أخـبرني رجـالي أنهـم يتقدمـون بمَركبـات حـربٍ معدنيـة عـلى شـكل عقـارب وجعاريـن، يتوسـطهم تلـك الآلـة الضخمـة التـي يطلقـون عليها اسـم ربّـة الحـرب ويعلـوا موكبهـم سـحابة سـوداء مخيفـة، لقـد أصـدرت أوامـري لهـم بمراقبتهـم مـن بعيـد دون الاشـتباك معهـم وابلاغـي حـال حـدوث أي حركـة مفاجـأة.

فقال له مُهاب:

- سنبدأ على الفور بتزويد الرجال بالأسلحة وتحصين أسوار ملاذ وأبراجها وبواباتها.

أشار راكان إلى خريطة ملاذ المرتسمة أمامه وقال:

- سنقسم الصيادين إلى ثلاثة فرق، لحماية الجنوب والشرق والغرب، لا أعتقد أنهم يستطيعون الهجوم من الشمال من جِهَة البحرِ، كما أن الالتفاف حول ملاذ سيأخذ وقتًا طويلًا، سنركز دفاعنا على جهة الجنوب، وفي حالة تعرض أي جناح من الشرق أو الغرب للضغط سنمده بالمعونة.

قال مُهاب موافقًا:

- فكرة جيدة.

فأشار راكان إلى صياد ضخم الجثة ذو مرتبة عالية بين الصيادين وقال:

- سيتولى أدهم مسؤولية الغرب، وسأتولى أنا الجنوب، وسيكون عليك أنت تولي مسؤولية الشرق.

ثم التفت إلى رجاله وقال:

- هل لدى أحدكم أي تعليق؟

هز الرجال رؤوسهم نفيًا، فقال راكان:

- إذن فلنبدأ في تنفيذ الخطة.

انصرف مُهاب من بلاط راكان ليُسرع في تنفيذ الخُطّة، وكان الحِصْن يموج كخلية النحل، وجميع الصيّادين يتهيؤون للمعركةِ القادمة، ثم توجه ناحية مقاطعة الحدادين للبحث عن قاسم، فلم يجده هناك،

فأصدر أوامره لرجاله بأن يحضر قاسم إلى بوابة ملاذ الشرقية حال رؤيته على الفور. في تلك اللحظة كان قاسم ببيته، يجلس مع جده وعمته وزوج عمته لتوديعهم وهو يقول:

– قد لا أعود من تِلك الحرب.

فقالت عمته من بين دموعها:

– ستعود يا قاسم، ستعود بإذن الله.

أما زوج عمته فقال:

– ملاذ كلها تتحدث عنك.

فقال قاسم:

– حقًا؟

فابتسم زوج عمته وقال:

– ألم تسمع حديث الناس وهمسهم؟ مُقاطعات ملاذ كلها تتحدث عن قاسم بن عمار.

فهز قاسم كتفيه وقال:

– أعتقد أنني كنت مُنشغلًا.

أما جده فتكلم أخيرًا وقال:

– لم أحظى بفرصة للحديث معك يا بني، ولكن أردت أن أخبرك أني ما أخفيت عنك الماضي إلا رغبةً في حمايتك، ولكن رُغمًا عنك حملت عبئًا حمله أبيك من قبل، ربما يكون قدرك أن تُعيد الأمور لنصابها، أن تجعل ملاذ، ملاذًا حقًا. فليوفقك الله يا ولدي.

تَهَدْج صوت الجد في كلماته الأخيرة فاحتضنه قاسم وقال:

– شكرًا لك يا جدي، كنت أحتاج حقًا لسماع تلك الكلمات!

وهكذا ودع قاسم أهله وغادر حي الرماد متجهًا ناحية مقاطعة الحدادين، حيث كان أويس بانتظاره، والذي ما أن رآه حتى قال:

– أين كُنت يا رجل؟ أنا هنا مُنذ أرسلت في طلبي.

فقال له قاسم:

– هل كل شيء في معسكر المنبوذين جاهز؟

اومأ أويس برأسه وقال:

– نَعم ولم يتبقى إلا تحركنا!

وفي تلك اللحظة ظهر أحد الصيّادين مهرولًا على حِصَانه وصاح:

– قاسم! مُهاب يبحث عنك منذ الصباح، هو في انتظارك عند البوابة الشرقية.

وهكذا تحرك قاسم مع أويس متجهين إلى بُوّابة ملاذ الشرقية فرأوا عدة خيام منصوبة وقادة الصيّادين يتحركون بين الجنود يدربونهم على التشكيلات القتالية في المعركة، ومُهاب يُلهب حَمَاسهم للاستعداد للمعركة، وفداء ملاذ بأرواحهم، وانتقلت عدوى الحماس للجميع، وما أن رأى قاسم حتى لوح له بيده ليقترب منه وقال له بعد أن انفرد به في احدى الخيام:

– الحرب على وشك البدء، هل كل شيء جاهز؟

فقال له قاسم:

– أجل سأتوجه مع أويس إلى معسكر المنبوذين على الفور.

فقال له مهاب:

– هل ستقدر على إيقاف ربّة الحرب؟

أجابه قاسم:

– هذا ما أتمنى فعله.

قال له مهاب:

– لا يوجد مجال للتمنّي، يجب أن تفعلها؟

فقال قاسم بحزم:

– سأفعلها!

ثم تذكر كلام جده فقال بصوتٍ هامس:

– بإذن الله.

وهكذا شاهد مُهاب قاسم يغيب في الأفق متجهًا ناحية مُعَسكر المنبوذين، فالتفت إلى جنوده يحمسهم ويشرف على تدريبهم، حتى غاب آخر شعاعٍ للشمس وحل الظلام ولم يعد هناك ضوء إلا ضوء المشاعل، المتناثرة بين الخيام، ولم يقدر مُهاب على النوم رُغم مُحاولته، فقد أوشكت اللحظات الأخيرة، وهكذا ظل متيقظًا وهو يتقلب في فراشه حتى ظهرت أول خيوط الفجر في الأفق. فجأة سمع ساكني ملاذ أصوات أبواق مرتفعة تنذر بمقدم الجنوبيين، فخرج مهاب من خيمته ليجد سحابة من الدُخّان تقترب من ملاذ، لقد وصل جيش أبيدوس.

***

نظـرت جهـاد وهـي واقفـة بجـوار قاسـم إلى الآلـة العملاقـة التـي أخـذت هيئـة ذئـب وقالـت:

– مازال يُبهرني حقًا قُدرتك على صناعة تلك الأشياء!

فقال قاسم:

– لم أصنعـه وحـدي، بـل سـاعدني أويـس بخبرتـه، وكذلـك كل الرجـال الذيـن وقفـوا بجـواري هنـا في المُعَسـكر.

ثم قال بخجل:

– وكذلك أنتِ بتشجيعك الدائم لي!

فابتسمت بخجلٍ بدورها وقالت محاولة أن تداري خجلها:

– ولما على شكلِ ذئْب؟

فقال لها أويس:

– ألم تعرفي السبب؟ في ملاذ يُطلقون عليه اسم الذئبِ الوحيد؟

فقالت بدهشة:

– حقًا؟

فقال قاسم:

– لا يوجـد وقـت لهـذا الـكلام، المعركـة عـلى وشـك البـدء، هيـا بنـا يـا أويـس!

فقال له:

- سنحتاج إلى رجل ثالث فأنت ستحرك الذئب، وأنا سأتولى المدافع اليمنى، نحتاج رجل يتولى المدافع اليسرى.

فقالت جهاد:

- سأتولاها انا، سآتي معكما.

فقال قاسم باستنكار:

- مُستحيل!

فقالت له جهاد:

- ولما لا!

فقال قاسم:

- هذه حرب، لسنا ذاهبين إلى نزهة!

فقالت له:

- وأنا مُقاتِلة مُنذ نعومة أظافري ولا أخاف من الحرب!

فقال لها:

- ولكن ماذا لو حدث لكِ شيئًا؟

فأجابته بتصميم:

- لا أستطيع البقاء هنا مكتوفة الأيدي وأنت وأبي والجميع تضعون أرواحكم على المحك، لن أقدر على البقاء هنا منتظرة، لقد حسمت أمري سآتي!

obeikan.com

قال لهما أويس وقد وصلت أصوات الأبواق إليهم:

– لا يوجد وقت لهذا، لقد بدأت الحرب!

في تلك الأثناء كان مُهاب يصرخ في جنوده لتحصين أسوار ملاذ، وأمسك الصيّادين بأقواسهم وأسهُمهم على أهبة الاستعداد، أما المُشاة فقد امتشقوا سيوفهم، وبدا مظهر مركبات الحرب الجنوبية مخيفًا، فقد ظهرت على شكل عقارب وجعارين ميكانيكية، كأنها وُحوش أسطورة جاءت من عصورٍ غابرة للفتك بهم، أما أشد ما أثار خوف الرجال هو مرأى الآلة المصنوعة على هيئة سخمت ربّة الحرب، كانت أكبر عربة يراها احدهم في حياته، بدت كربّة حرب حقًا، مما ألقى بالرُعب في قلوب جنود ملاذ، فصاح فيهم مُهاب لتثبيتهم والربط على قلوبهم، ولاحظ مُهاب أن المركبات الحربية تتفرق لتطويق ملاذ، وربّة الحرب تتقدم ناحية البوابة الرئيسية، في تلك اللحظة كانت مجموعة من المَركبات تقترب من الجانب الشرقي فرفع يده للرماة ليستعدوا، وعلى الفور بدأ الرماة في وضع الأسهم في أقواسهم وجذب الوتر بقوة استعدادًا لإطلاقه، لم تكن أسهمًا عادية، بل كانت أسهم مُزودة برؤوسٍ منفجرة خاصة صنعها قاسم، عن طريق تزويدها بالنترات المستخرجة من المناجم، وما أن أصبحت العربات في مرمى الأسهم، حتى خفض يده بقوة فانطلقت الأسهم محلقة تجاه العربات، وما أن ارتطمت بها حتى انفجرت بقوة، وتأثرت بعض المركبات بالانفجار والحرارة، وتعالت صرخات بعض جنود أبيدوس، ولكن العربات الأخرى استمرت في تقدمها ناحية ملاذ، وبدأت تُطلق بعض القذائف التي انفجرت مُحطمة أجزاءً من أسّوار ملاذ، ومُلقية بعض الرماة من فوقها ليسقطوا صرعى على

الأرض، فرفع مُهاب يده مُجددًا للرماة، فاستعدوا لإطلاق الدفعة التالية من الأسهُم المتفجرة، ثم خفض يده فانطلقت سحابة الأسهُم باتجاه العربات لتنفجر وسطها، في تلك اللحظة كان ما تبقى من العربات قد اقترب كثيرًا من أسوار ملاذ، فامتشق مهاب سيفه وتقدم يقود الصيادين باتجاه العربات، والتمعت السيوف بشرارات زرقاء، واشتبكوا مع العقارب والجعارين، يقطعون أذنابها وأرجلها، وبدأ جنود أبيدوس يطلقون مدافعهم باتجاه المشاة فتنفجر وسطهم لتحولهم إلى أشلاء، وأحس مهاب بيأس عظيم يتسلل إلى نفسه، وأنهم خاسرون الحرب لا محال، فنظر مهاب ناحية الأفق وقال:

– أين أنت يا قاسم؟

عزيمة لا تنكسر

مـن داخـل الذِئْـب المعـدني أخـذ قاسـم يُحـرك مجموعـة مـن الأذرع ويديـر مجموعـة مـن الـتروس لتحريـك الذئـب، وعينـه عـلى المؤشر الـذي يراقـب طاقـة الخليـة الموضـوع في قلـب الذئـب، ثـم قـال:

– مدافع الميمنة جاهزة؟

فقال أويس:

– جاهزة.

فقال قاسم:

– مدافع الميسرة؟

فقالت جهاد:

– جاهزة.

في تلـك اللحظـة ظهـرت سـحابة الدُخّـان السـوداء أمـام أسّـوار مـلاذ، والذئـب يتقـدم مـن الناحيـة الشرقيـة، وبـدأ قاسـم يوجـه أسـلحته باتجـاه العقـارب والجعاريـن ويلقـي أوامـر لأويـس وجهـاد، وعـلى الفـور بـدأت مدافـع الذئـب تنطلـق، لم تطلـق المدافـع طلقـات ناريـة مـن معـدن وبـارود كمدافـع الجنـوب، بـل طلقـات مـن الطاقـة التـي تحيـل المركبـة المعدنيـة إلى قطعـة معـدن ذائبـة غـير واضحـة الملامـح، وأعـاد ظهـور الذئـب الأمـل إلى قلـوب جنـود مـلاذ، وصـاح مهـاب في فـرح:

obeikan.com

– لقد أتى قاسم!

وهكذا بدأت كفة المعركة تنقلب مجددًا لصالح جنود ملاذ الذين حملوا على جنود أبيدوس، وفجأة رأى الجميع ربة الحرب تقترب من الناحية الشرقية، بعد أن عرف سيا بالتغير الذي حدث في الشرق، ولمح قاسم من داخل الذئب ربّة الحرب وهي تقترب، وسمع صَوْت سيا قادمًا من مكبر الصوت:

– قاسم!

حرك قاسم ذئبه على الفور باتجاه ربّة الحرب، وهو يُناوِر لتفادي قذائف سيا التي يُطلقها تجاهه، كان قاسم يشعر بغضب شديد تجاه سيا، خيانة ثقته، وجرائمه التي ارتكبها بما تعلمه منه، وعودته للهجوم على الملاذ، كل هذه الدماء التي تُسفك الآن في المعركة هي بسبب سيا، فحرك مدافعه باتجاه ربّة الحرب وصاح في أويس، فالتمع المدفع الأيمن ببريق أزرق وأدرك سيا بفطنته ما على وشك أن يحدث، فناور الطلقة القادمة باتجاهه لتعبر من جوار مركبته وترتطم بأحد أبراج ملاذ وتحطمه، صاح أويس:

– أحترس يا قاسم!

كان الغضب يعتمل بشدة في صدر قاسم، ولكنه كان يدرك أن المعركة هنا ستؤدي إلى مزيدٍ من الخسائر، فقالت له جهاد:

– فلتستدرجه إلى الصحراء الشرقية بعيدًا عن ملاذ.

وهكذا بدأ قاسم يُناور سيا ويتفادى ضربات مدافعه وهو يتراجع للوراء، فظن سيا أنه يحاول الهرب منه فضحك عاليا ثم قال بشراسة:

– لن تهرب مني!

وهكذا انتقلت الحرب بينهم إلى الصحراء بعيدًا عن أسوار ملاذ، فبدأ قاسم يهجُم بكل قوته، ومدافعه تضرب ذات اليمين وذات اليسار، وأدرك سيا أن قاسم قوةٌ لا يُستهان بها، ولكن هذا لم يزده إلا شراسةً وتصميمًا على الفوز، ثم بدأت بعض العقارب والجعارين تنضم إلى ربة الحرب لمؤازرتها، ومن موقعه رأى مُهاب أثر المدافع وهي تطلق في الصحراء، وبدأت المركبات تنسحب من الجانب الغربي والجنوبي لتركز على الجانب الشرقي، فانتظر مُهاب ظهور إمدادات راكان كما وعد، ولكنه لم يظهر، كان راكان ومن معه يقاتل جزءًا صغيرًا من جيش سيا عند البوابة الرئيسية، فأرسل الرُسل واحدًا تلو الآخر في طلبِ الإمداداتِ، وعاد كل الرُسُل خاليي الوفاض، يهزون رؤوسهم في يأس، وأدرك مُهاب أن راكان سيتركه وقاسم يلقيان مصرعهما ويقاتل هو فلول جيش سيا بعد ذلك، لقد قرر أن يتخلص من خصميه مرةً واحدةً، فصاح في غضب:

– راكان!

ثم أمسك بسيفه وصاح فيما تبقى من جنوده:

– سنقاتل حتى آخر قطرة في دمنا من أجل ملاذ.

في تلك اللحظة كان قاسم مشتبك مع سيا في قتالهما، وبدأت بعض المؤشرات داخل الذئب ترتفع إلى درجة خطيرة، فقال أويس في قلق:

– حرارة المُحركات تزداد بدرجة خطيرة، أنت تضغط على خلية الطاقة، لو وصلنا إلى المرحلة الحرجة ...

فقال قاسم:

– فلنأمل أن تنتهي المعركة قبل أن يحدث ذلك!

لم تفهم جهاد ما يتحدثون عنه، ولكنها أحست بالخوف، ثم قالت لنفسها، على الأقل ستموت بجانب قاسم، كانت مدافعهم تحصد العقارب والجعارين، ولكنها بدت بلا نهاية، كلما هزموا موجة ظهرت موجة أخرى، لقد أصاب سيا الجنون، وقرر أن يقضي على قاسم بأي ثمن، وبدأت العقارب تتسلق الذئب بأرجلها المعدنية وتنشب أذنابها في هيكله، ومدافعها النارية تضرب مدافع الطاقة دفاعًا عن ربة الحرب، وصاحت جهاد فجأة في خوف:

– لقد سقط المدفع الأيسر!

تراجع قاسم بالذئب في يأس، وهو يستخدم مدفع الجانب الأيمن فقط، وبدا كأن المؤشرات قد أصابها الجنون، وهي تُطلق صفيرًا مخيفًا، فقال أويس:

– قاسم!

فقال له قاسم بدون أن ينظر ناحيته:

– سأقوم بمناورة تشتت أنظارهم، وعليك في تلك اللحظة أن تأخذ جهاد وتبتعدا عن هنا!

فقال له أويس:

– ماذا ستفعل؟

فقال له قاسم:

– أنت تعرف ما سيحدث للخلية عندما تصل إلى تلك المرحلة الحرجة، أريدك أن تبتعد بجهاد عن هذا المكان بأكبر قدر ممكن.

فقال أويس في فزع:

– لا يا قاسم مُسْتحيل!

فقالت جهاد:

– ما الذي يحدث؟

قال لها أويس:

– خليـة الطاقـة سـتنفجر بشـكل كبـير، وقاسـم يرغـب في أن يسـتغل هـذا التفجـير للقضـاء عـلى ربّـة الحـرب، ولكـن هـذا التفجـير سـيقضي عليـه أيضًـا!

فقالت جهاد باكية:

– لا هذا جنون!

فقال قاسم بتصميم:

– هذا هو الحل الوحيد!

فنظر أويس إلى دموع جهاد ثم نظر إلى صديقه قاسم وقال:

– إن كان هناك أحد سيفعلها فهو أنا!

فقال قاسم باستنكار:

– لا مُستحيل، لا أقبل بأن تضحي بنفسك من أجلي!

فقال له أويس:

– أنت لديك عائلتك لتعود إليها!

ثم نظر ناحية جهاد وقال:

obeikan.com

– ولديك من يُحبك، أما أنا فلا أحد أعود من أجله.

نظر ثلاثتهم إلى بعضهم البعض، قاسم وجهاد وأويس، في تلك اللحظة كان المدفع الأيمن قد سقط أيضًا، والمؤشرات تتقافز في جنون، فصاح أويس:

– لا وقت لنُضيعه، هيا ابتعدا!

تردد قاسم فقال أويس لجهاد:

– خُذيه من هنا!

فأطاعته جهاد على الفور وجذبت قاسم من يده مُتجهان إلى مَخْرَج الطوارئ، اما أويس فأمسك بالأذرع التي تحرك الذئب وقال:

– تعالوا إليّ أيها الأوغاد!

كانت الجعارين والعقارب تزحف الآن على ظهر الذئب، وما أن تأكد أويس أن جهاد وقاسم قد ابتعدا بين سحب الرمال التي أثارتها المعركة، حتى حرك الذئب إلى الأمام، ليركض بكل قوته، والمركبات متعلقة به أو تزحف على الأرض نحوه، حتى التحم الذئب باللبؤة، وقال أويس:

– إلى الجحيم أيها الأوغاد!

ثم انفجر الذئب بدوي هائل أطاح بكل المركبات، من عقارب، وجعارين ... وربّة الحرب.

***

ركع قاسم على ركبتيه وسط الرمال وهو يُشاهد الانفجار الذي ارتفع في السماء، وبكى كما لم يبكِ من قبل، وركعت جهاد بجواره تضُمه إليها وهي تبكي بدورها، ثم قالت له تُحاول تهدئته:

– لا بأس لقد انتهى كل شيء، لقد انتهت الحرب، لقد هُزم هذا المجنون سيا!

وفجأة سمع قاسم صوت مألوف يقول:

– ليس بهذه السرعة أيتها الفتاة.

التفت قاسم ناحية مصدر الصوت واتسعت عيناه غير مصدق، كان سيا يقف أمامه وعلى وجهه نظرة غاضبة، وهو يقول:

– قد أكون خَسِرت المعركة، ولكني لم أخسر الحَرْب!

قال قاسم غير مصدق:

– أنت؟ كيف؟

قال سيا:

– رأيتك أنت وهذه الفتاة تسللان مثل الجرذان من مركبتكم الغارقة، إلا أن الذئب كان ما يزال يقاتل باستماته، وأدركت أن هناك شيئًا غير منطقيًا، فتركت قيادة ربة الحرب لرجالي، وتسللت ورائكما، ولما رأيت الانفجار عرفت خطتك. ولكني لن أتركك، يجب أن تدفع الثمن!

فصاح قاسم في غضب هادر:

– بل أنت من سيدفع الثمن أيها الوغد!

استل سيا سيفًا من غمده وقال:

– بعد تدمير مركبتينا، يؤسفني أن نعود إلى الطرق القديمة.

فبرقت عينا قاسم في شراسة لم ترها جهاد في عينا قاسم من قبل وهو يستل سيفه من غمده، فاقتربت منه جهاد وهي تقول:

obeikan.com

– قاسم ...

قاطعها قاسم:

– ابتعدي!

ثم التفت إلى سيا وقال:

– هذه المعركة بيني وبينه!

تراجعت جهاد في خطوات بطيئة، أما سيا فلاحظ تلك الأسلاك المحيطة بالسيف، ومقبضه غريب الشكل، ولم يُمهله قاسم ليفكر بل ركض نحوه في غضبٍ هادر، ورفع سيا سيفه ليصد الضربة بمهارة، ثم ركل قاسم في بطنه بقوةٍ شديدة فتراجع بشكل حاد وهو يمسك بطنه في ألم، فقال له سيا:

– لا تستهن بقوة من تربى على القتال في البلاطِ الملكي.

بصق قاسمُ الدماءَ من فمه وأمسك بسيفه مجددًا وركض ناحية سيا ليلتحم معه مجددًا، موجهًا له ضَرْبة قوية تلقاها سيا بسيفه، ثم أعاد الضَرْبة إلى قاسم فتفادها فانحنائه رشيقة، وهكذا تبادلوا الكر والفر، ومع كل حركة لسيف قاسم كانت تظهر شرارات زرقاء من حوله، أحاطت سيف قاسم هالة مُخيفة من اللون الأزرق، فقال سيا بتوتر:

– ما معنى هذا؟

فبرقت عينا قاسم في شراسة وقال:

– يعني أن المعركة قد انتهت أيها الوغد.

ثم رفع سيفه ليهوي به على سيا، الذي رفع سيفه بدوره ليَصُدّ الضَرْبة، ولكن سيف قاسم شَطَر سيفَه نصفين كما تشطر السكينُ

الساخنة قِطْعةَ من الزُبْد، وأكمل طريقه ليقطع الذراع الممسكة بمِقْبض السيف فسقطت أرضًا وسيا يَصْرُخ في ألمٍ شديد، فقال له قاسم:

– هذه من أجل أويس!

ثم اقترب منه قاسم وهو يزحف على الرمال يحاول أن يهرب منه وقال:

– وهذه من أجل ملاذ!

ثم هوى بالسيف قاطعًا رأس سيا، ثم التفت ناحية جهاد بنظرات زائغة والدماء تقطر من سيفه، ثم انهار على الأرض مُستسلما للألم الذي ينتاب جسده وغاب عقله في ظلامٍ عميق.

obeikan.com

البعث

استعاد قاسم وعيه ليجد نفسه راقدًا على سرير، وجهاد جالسة على كرسي خشبي، مغمضة عينيها وقد وضعت رأسها على كفها، فناداها بحيرة:

– جهاد!

فتحت جهاد عينيها واعتدلت من جلستها ثم قالت بسعادة وهي تقترب منه:

– لقد استيقظت أخيرًا!

فقال لها قاسم وهو يشعر بألم شديد:

– ماذا حدث؟

فقالت له جهاد:

– لقد انتصرنا، بعدما قتلت الأمير سيا، بدأ جيش أبيدوس يتراجع محاولين الفرار في يأس، وقد تتبع جُنود ملاذ فلول جيشهم للقضاء عليهم، وقد صاح الصيّادون باسمك بعدما عرفوا أنك من قتل الأمير سيا، وملاذ كلها تتحدث عن بطولاتك.

صمت قاسم وهو يُفكر في الحرب، وتذكر صديقه أويس، فترَقْرَقت عيناه بالدموع، وأدركت جهاد ما يُفكر فيه فصمتت محترمة صمته، حتى تكلم قاسم أخيرًا وقال:

obeikan.com

– وأين أنا الآن؟

فقالت له جهاد:

– نحن في الحصن لقد حملك أبي إلى هنا بعد المعركة، وأحضر عدة حكماء وعطارين لرؤيتك، ولكنهم قالوا إنك ستكون بخير!

فقال لها:

– وأين هو مُهاب الآن؟

جاءه صوت من عند الباب يقول:

– أنا هُنا أيها البطل، حمدًا لله على سلامتك!

قال له قاسم:

– جدي، وعمتي، كيف حالهما؟

قال له مهاب:

– هما بخير، لحُسن الحظ أن حيّ الرَمادِ لم يكن بالقُرب من أسّوار ملاذ، فلم يُصبهما شيئًا من المعركة.

قال قاسم:

– حمدًا لله!

ثم أغمض عينيه فقال له مُهاب:

– هناك احتفال كبير سيُقام الليلة على شرفك، فلا تتكاسل وانهض من فراشك.

فقال قاسم:

obeikan.com

– لا رَغبة لي في الاحتفال!

فقال له مُهاب:

– ظهورك في هذا الاحتفال مهم!

قال له قاسم بحيرة:

– ماذا تعني؟

نظرت جهاد إلى أبيها وقالت:

– أتركه ليرتاح الآن.

فقال قاسم بإصرار:

– ماذا هناك؟ ما الأمر؟

أخبره مهاب بالحديث الذي دار بينه وبين راكان وقادة الصيادين يوم التخطيط للمعركة، ثم أضاف:

– لقد تخلى راكان تمامًا عن الجانبِ الشرقي ولم يمُدّه بالدعم رغبةً في التخلُص مني ومنك، مما جعل الصيّادين يتكبدون خسائِر فادحة بين صفوفهم، كما أن ظهورك أعاد للصيّادين ذكرى أبيك عمار، وهناك رياح تَمَرُّد تلوح في الأفق، فالخِيانة أمرٌ لا يُغتفر في قانونِ الصيّادين.

فقال قاسم في تعب وحزن:

– المزيد من الصراع، لقد تعبت!

قال له مُهاب:

– ألا تفهم، إنها فُرصتنا لمُواجهة راكان وانتزاع السلطة من يده.

obeikan.com

فقال قاسم في حدة:

– فُرصتنا؟ هل هذا ما تطمح إليه؟ أن تُصبح زعيمًا؟

أحس مُهاب بالدهشة لحدة قاسم وقال:

– لا أرغب في السلطة لنفسي، بل أرغب أن تُصبح أنت الزعيم من بعد عمار، فلا أحد يستطيع أن يَخْلُفه خيرًا منك، فأنت الآن تمثل رمزًا لهؤلاء القوم بالخارج، تمثل لهم الأمل!

استمر قاسم في حدته واندفاعه قائلًا:

– هل تَرغب في أن أواجه راكان بالنيابة عنك، ألم تُفكر إلا في نفسك قبل أن تزج بي في هذا الصراع؟ أم ترغب في أن تضع دمية على العَرْشِ وتحكم أنت من وراء الستار!

ظهر ألمٌ شديدٌ على وجهِ مُهاب، وبَكَت جهاد، فأحس قاسم بقسوةِ كلماته، فقال:

– آسف لم أقصد ...

اختنقت الكلماتُ في حلقِه، ولم يستطْع أن يُكمل جملته، فزفر مهاب وقال:

– لا عليك يا قاسم، فما مررتَ به لم يكُن هينًا، ما مررنا به جميعا سيترُك في أرواحنا نِدوبًا لن تنمحي، ولكن في هذه اللحظة لا يوجد شيء أفكر فيه إلا ملاذ.

فتحامل قاسم على نفسه لينهض وقال له:

– سآتي معك!

قالت له جهاد:

– لا تُرهق نفسك.

فابتسم قاسم ابتسامة باهتة وقال:

– لا بأس أنا بخير.

وهكذا سار ثلاثتهم في ممراتِ القصر حتى وصلوا إلى حُجرة العرشِ الواسعة حيث يقام الاحتفال، وتفاجئ قاسم بوجود عددٍ كبيرٍ من الصيّادين، وقد مُدت موائد عظيمة من الطعام عليها ما لذّ وطاب، وأخذت بعض الفتيات ترقُص على أنغامِ الموسيقى، وارتسمت البهجة على وجوه الجميع، وكان راكان هناك جالسًا على عرشه ممسكًا في يده بقدحٍ من الشراب وهو يضحك بصوتٍ عالٍ، وما أن دلف قاسم إلى الحجرة حتى تجهم راكان، وصمتت الموسيقى، ونظر الجميع إلى قاسم وراكان وهما يتبادلان النظرات، ثم رفع مُهاب يد قاسم لأعلى وهو يقول:

– يحيا قاسم بن عمار!

فصاح الصيادون وهم يرفعون أقداحهم إلى السماء، ثم أخذ مُهاب يسرد في كلمات مختصرة كل ما فعله قاسم من أجل الانتصار في الحرب، ثم قال في النهاية:

– لولا قاسم لما انتصرنا أبدًا!

ظهر الضيق وعدم الارتياح على وجه راكان، فقال مُهاب:

– وأود أيضًا أن أتحدث عن خيانة تمت بين صفوفنا أثناء الحرب!

فصاح راكان في غضب:

– عن أي خيانة تتحدث يا مُهاب؟

فقال مهاب وهو يعقد ذراعيه أمام صدره:

– عن خيانتك لنا أثناء الحرب، وتركك لرجالك يموتون أمام عينيك كي تتخلص مني ومن قاسم!

لم يتوقع أحدًا أن يتكلم مُهاب بمثل تلك الصراحة، فأتى كلامه صادمًا للجميع، واستل بعض رجال راكان سيوفهم، فاستل بعض رجال مُهاب سيوفهم بدورهم، ولكن غالبية الحاضرين وقفوا حائرين بين الطرفين، لم يكن الانحياز إلى طرفًا منهما أمرًا هينًا، علت الهمسات والغمغمات بين الصيّادين، فرفع قاسم يده، وصمت الجميع، ثم تكلم قاسم وقال لراكان:

– هناك وسيلة واحدة تحكم بيننا في هذا الأمر!

نظر إليه راكان بفضول ومُهاب أيضًا الذي لم يعرف ما الذي يُفكر فيه قاسم، وكذلك تعلقت به عيون جميع الصيّادين، وقد تجلّى الأمل في ملامح الحاضرين أن تُحَل تلك المشكلة بين الطرفين، فأكمل قاسم قائلًا:

– الطريقة الوحيدة لحسم الامر، هو أن نتبارز أنا وأنت، والمُنتصر يسري حكمه على الجميع، أليس هذا هو قانون الصيادين؟

التمعت عينا راكان في شراسة، فيما ارتسم الخوف على ملامح جهاد ونظرت ناحية مهاب الذي قال بنبرة متوترة:

– قاسم لا يجب عليك ...

ولكن قاسم استل سيفه من غمده وقال وهو يتقدم ناحية عرش راكان:

– لقد حَسَمت أمري.

فضحك راكان ثم وقف من على عرشه، فبدت هيئته الضخمة مخيفة في ضوء الشموع وبابتهاج وحشي:

– وأنا قَبِلت التحدي.

لم يعد هناك مجال للتراجع، فتحلق الصيّادون حول قاسم وراكان، صانعين دائرة كبيرة، وتأهبت كل القلوب لمعرفة نتيجة هذه المباراة، وقد تعالت بعض الصيحات تُشَجّع راكان أو قاسم، إلا أن غالبية الجمع قد أخذوا يراقبون في رهبةٍ وصمت. أما قاسم فقد انعزل عن العالم وانصب كل تركيزه على خصمه، فأحس أنه وسط سكون شديد لا يأتيه سوى صَوْت نبضات قلبه، وتجمعت حبّات العرق على جبينه وهو يدور حول راكان الذي لم تنمحي النظرة الساخرة من على وجهه، وفجأة التحم الخِصْمان وعلا صوتِ صليلِ السيوف، فأحس قاسم بفارق القِوى الجُسّمانية بينه وبين راكان وضَربات سيفِ الأخير تُزَلّزِل كيانه، وأدرك أنه ليس زعيم الصيادين من فراغ، فبدأ يراوغ ضرباته برشاقة مستغلًا خفة حركته لتعويض الفارق في الحجم والقوة. لم يبد أن كفة المعركة في صالح قاسم، وفي ضربة قوية من راكان انتزع السيف من يدِ قاسم ليسقط بعيدًا، وصرخت جهاد في فزع، وأدرك الجميع أن الأمر قد انتهى لصالح راكان، ولكن الأخير فاجئهم بأن ألقى سيفه جانبًا وهو يقول بشراسة:

– سأنزع لحمك عن عظمك بقبضتي العارية، وسأستمتع بسماعك تصرُخ من الألم وتطلُب الرحمة!

ثم انقض على قاسم وحمله بذراعيه لأعلى ثم ألقاه بقوة على الأرض، فأحس قاسم بكل عظمة في جسده تأن من الألم وانحبست أنفاس الصيادين وهم ينتظرون نهاية تلك المعركة، واقترب راكان من قاسم بخطوات بطيئة وهو يبتسم بشراسة، وفجأة أمسك قاسم

بزجاجة شراب وألقاها ناحية راكان الذي تفاداها بانحنائه جانبًا، واستغل قاسم تشتته في تلك اللحظة ليتحامل على نفسه، ويقف مجددًا وانقض على راكان ليضربه بقبضته، ولكن راكان صَدّ ضربته بيُسْرٍ ثم لكمه في فكه بقوة فأحس قاسم بالدماء تسيلُ من بين شفتيه، ثم أحاطه راكان بذراعيه ورفعه في الهواء وأخذ يضغط بكل قوته، فأحس قاسم بألمٍ واختناقٍ شديديّن، وضلوعه تكاد تتحطم، وأخذ يُكافح ليأخذ نفسه، وبدا الانتصار حليف راكان الذي قال له بشراسة وتشفي:

– سأتخلصُ منكَ كما تخلصت من أبيك من قبل، وكما سأتخلص من كل من تسول له نفسه أن يقف في طريقي.

انفجر الغضب في قلبِ قاسم وهو يَصيحُ كالوحشِ الجريح:

– اللعنة عليك أيها الحقير!

لوهله أحس راكان بالندم لقوله ذلك فقد كان البريق الغاضب المطل من عينيّ قاسم مخيفًا، ثم استجمع قوته وأرجع رأسه للوراء ثم قام بضرب راكان في رأسه، وأحس قاسم بألم شديد في رأسه ولكن ضربته جعلت راكان يرخي ذراعيه قليلًا فرفع قاسم يده وهوى بيده على رقبة راكان محطمًا ترقوته، فسقط راكان على الأرض وهو يكافح لأخذ نفسه ثم سقط على الأرض بجوار سيفه، فأمسك به وحاول أن يُوجه ضربة أخيرة لقاسم، ولكن قاسم استل خَنْجره ذو المقبض العاجي من وراء ظهره وغرسه في صدر راكان، الذي سقط على الأرض في ذهول، قبل أن تفارقه الروح ويختفي بريق الحياة من عينيه.

حَلّ على المكانِ صمتٌ غريبٌ والصيّادون ينظرون إلى قاسم، فركضت جهاد ناحيته، ورفعت يده وهي تقول:

– عاش زعيم الصيادين، قاسم بن عمار.

فهتف الصيادين وهللوا، واقترب مُهاب من قاسم وربت على كتفه، أما قادة الصيادين نظروا إلى بعضهم البعض فقال لهم مُهاب:

– لقد فاز قاسم في مبارزة عادلة!

لم يعد هناك مفر أمام جميع الصيّادين إلا الانحناء أمام قاسم زعيم الصيّادين، وزعيم ملاذ الجديد، أما قاسم فلم يُصدق ما حدث له، حتى وهو جالِسٌ على العرشِ الصخريّ وحوله زعماء وقادة الصيادين يقسمون له بالطاعة والولاء.

أما في الجنوب فقد جلس الأمير سخموي على عرش أبيدوس، وتم إعلانه ملكًا، وكان أول قرار ملكي له هو إعدام توت ـ أنوب بإلقائه للتماسيح في النيل، كما سارع سخموي بإرسال الرسل إلى ملاذ، متبرئًا من أفعال أخيه، مجددًا عهود الصداقة بين ملاذ وأبيدوس، فعادت قوافل التجارة لتصل من جديد بين الجنوب والشمال.

بعدما استَتَب حُكم ملاذ في يدِ قاسم ودان له كُلّ الصيادين بالطاعةِ والولاء، قام بإلغاء الإتاوات، كما قام بإلغاء العمل الإجباري على سكانِ ملاذ، فلا أحد سيعملُ الا بأجرٍ وبمليء إرادته، وأحس الناس بالفرحة لكل هذه التغيرات التي حدثت لملاذ، وبدأ بعض الناس يهاجرون من قُراهم الصغيرة إلى ملاذ، بحثًا عن الملاذ في ظل حكم قاسم.

وعندما دعا قاسم رعاياه لحضور زفافه على جهاد بنت مُهاب، لبى الجميع الدعوة بفرحةٍ غامرة، وأُضيئت الأنوار في كل شوارعِ المدينة، حتى يُمكن للناظرِ أن يراها من بعيد، معلنة بدء فصل جديد في حياة قاطني ملاذ.

(تمت بحمد الله)

الكاتب في سطور

أحمد صلاح المهدي كاتب مصري، تخرج من كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة. كتب عدة مقالات نقدية وأدبية على عدد من المواقع العربية منها نون بوست وكوميكس جيت، وصدر له مجموعة من قصص الأطفال بمجلة فارس بمصر، كما صدر له قصة أطفال بعنوان «الأرنب الشجاع» عن دار الأصالة بلبنان بالتعاون مع مؤسسة الفكر العربي. ورواية «ريم» مع دار الكنزي للنشر والتوزيع بمصر، كما قام بترجمة رواية «الإله العظيم بان» للكاتب آرثر ماكين بالتعاون مع دار إبداع للنشر والترجمة بمصر. وقام بترجمة رواية التنين الأخير وهي رواية مصورة صادرة عن دارك هورس كوميكس وقامت بوابة الكوميكس وعرب كوميكس بنشر الترجمة على موقعيهما.

للتواصل مع الكاتب :

www.ahmedmahdi.net

obeikan.com